قطاع الثقافة

إحسان عبد القدوس

شفتاه



أخبار اليوم
قطاع الثقافة

شفتاه

إحسان عبد القدوس

الطبعة الثانية

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر
العربية ٦ شارع
الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس: ٥٧٠٩٣٠

الغلاف بريشة : عمرو فهمي

الرسوم بريشة : جمال كامل



شرف المهنة



بلا ادعاء ، وبلا مبالغة ، أستطيع أن أقول انى أمهــر عـــامل تليفـــون فى جميع دور الصحف.. لا صحف الجمهـوريـة العـربيـة المتحـدة وحدهـا ، بل صحف الشرق الأوسط كلــه .. ولـــولا جهلى بـاللغـات الأجنبيـــة لاستطعت ان اقول انى امهـر عامل تليفون فى جميع صحف العالم..

وعامل التليفون فى الصحيفة، ليس مجرد واحد من العمال أو الموظفين.. انه قلب الصحيفـة.. القلب الذى ينبع منـه الدم، ويعود إليـه الدم، وتتجمع عنـده كل العـروق والشرايين.. وقد لا يعـرف القـراء اهميتنـا داخل العمل الصحفى.. ولكن هذا ليس دليلاً على عدم أهميتنـا.. ثقوا اننى أكثـر أهمية للصحيفة من الأستـاذ مرجـوشى عوض الله سكـرتير التحريـر.. بل أكثر أهمية من الأستاذ فهمى فهيم فهوم الكـاتب المعروف.. انى وحدى استطيع ان ابعث الحياة فى الجريدة، واستطيع ان اشل حركتهـا واجعل منها جزيرة معزولة عن العالم محاطة بصخور.. مشغول.. مابيردش.. مافيش حرارة.. إلى آخر هذه الأنواع من الصخور.

انى استطيع ان احصـل لك على أيـــة نمـرة.. واستطيـع ان أصلك بأى شخص تريد محادثته ولا تعرف مكـانه، فأجده لك من تحت الأرض، سواء كان فى عملـه أم فى كباريـه، مع زوجته أو مع عشيقتـه.. واستطيع أن اقطع المكـالمة التليفـونيـة على أى متحـــدث فى أنحــاء الجمهـوريـة، وأن اصلك بالاسكندرية بعد دقيقتين ، وأصلك ببيروت أو نيـويورك بعد ساعتين.. إنى أستطيع ان افعل العجـائب.. كيف؟! هذا هـو سر المهنة.. سر اكتسبتـه بعد تجارب خمسة عشر عاما جالسا أمام جهاز «السويتش» فى دار الجريدة.

ورغم ذلك ..

رغم كل ذلك، فـانى الآن عـاطل.. ومضت أكثـر من سنـة شهـور وأنـا عاطل..

لست عاطلا فحسب، بل مفلساً.. لقد كان مرتبي الذي أتقاضاه من الجريدة.. ثمانية عشر جنيها في الشهر، ومجموع «البقشيش» أو الاتاوات التي أفرضها على السادة محرري وموظفي الدار تبلغ حوالي العشرين جنيها في الشهر أي أن دخلي كان لايقل عن ثمانية وثلاثين جنيها في الشهر، وأحيانا يصل إلى أربعين جنيها، وكنت ادخن سجائر بلمونت، واتناول غدائي عند أبو شقرة، وألعب الطاولة في قهوة الشمس، والآن، ماعكش سيجارة سلف!

كيف حدث هذا ؟

كيف أصبحت عاطلاً ؟

انها قصة طويلة تبدأ عندما التحق الأستاذ زكي شحاتة بالدار، وعين رئيسا للتحرير.. وقد حيرتني شخصية الأستاذ زكي عندما رأيته لأول مرة، كان أنيقاً، مبتسما، رقيقاً، مهذباً، يلمع وجهه دائما كأنه يدهنه بالورنيش.. ولكن هذا المظهر لم يخدعني، ولم أصدر حكمي عليه عندما رأيته، فاني لم اتعود ان أعرف الأشخاص بعيني، بل اني أعرفهم بأذني، خلال محادثاتهم في التليفون..

نعم .. اني استمع إلى جميع المحادثات التليفونية التي تتم عن طريقي.. ليست جميعها، بل معظمها، فان بعض هذه المحادثات تبلغ من السخافة إلى حد ارفض معه الاستماع اليها..

هل بدأتم تسيئون الظن بي، وتوجهون لي اللوم؟

لا .. أرجوكم .. ان المثل يقول «طباخ السم، يذوقه»، وانا يجب أن أذوق كل محادثة تليفونية أصل بين طرفيها.. انه حق لي .. حق بديهي.. وليحاول أي واحد فيكم ان يجلس أمام «السويتش» ثم لايستمع إلى المحادثات التي تدور خلال الأسلاك.. مستحيل.. هذا أقوى من طبيعة البشر..

وقد تكونت لي موهبة خاصة من طول ما مارست الاستماع إلى المحادثات التليفونية.. اني استطيع ان اعرف شخصية المتحدث ونفسيته من صوته، ومن اسلوب حديثه.. أستطيع ان اعرف الشريف، والسافل، والمنافق، والصادق، والقوي، والضعيف، ان أصوات الناس كالموسيقى..

وكما تعبر الموسيقى عن مختلف العـواطف والأوصـاف والشخصيات.. فكذلك الأصوات، وأكثر من ذلك، انى استطيع ان اعرف عمرك بالضبط من صـوتك.. وإذا كان المتحـدث امرأة استطيع ان اعـرف إذا كانت شقـراء أم سمراء، عاطفية أم مـادية، عبيطة أم ناصحة، انها خبرة طويلـة.. وموهبة.. انه فن.. وأنا فنان!

واحيـانـا كثيرة اتدخل فى المحـادثـات التى استمع اليهـا.. فإذا كـانت المحادثة لا تعجبنى مثلاً، قطعت الخط، وقلت للأستاذ:

— أسف .. الترنك طالبنا !

وإذا كانـت المحادثة لطيفـة من النوع الـذى يعجبنى، أبعدت عنهـا كل المكالمات الأخـرى الخاصـة بـالدار، وجلسـت استمع اليهـا كأنى استمع إلى اغنية لنجاة الصغيرة، إلى ان تنتهى الأغنية نهاية طبيعية..

المهم ..

لقد انتظرت ان يتحدث الأستـاذ زكى فى التليفون، وحدث فعلاً.. ولكنه كان لايطلب الا محادثات خاصة بالعمل.. واستطعت خلال هذه المحادثات ان احكم عليه بـأنه انسان لبق، يستطيـع ان يصل دائما إلى ما يريـد، ولكن المحادثات الخاصة بالعمل لاتكفى للحكم على طبيعة الأشخاص ، ان العمل كالبـدلة التى تـرتديها، تستطيع ان تخفى تحتهـا جميع القروح والجروح المنطبعـة على جسدك، انما المحـادثـات النسـائية هى التـى تظهر طبيعـة الشخص وحقيقتـه.. تظهـر عـاريـا.. وقـد لا تعلمـون ان ٧٥ فى المائة من المحادثـات التليفونيـة فى الدور الصحفية، كلهـا محادثات ليس لها عـلاقة بالعمل.. كلها محادثات نسائية..

والأستـاذ زكى لم يتحـدث محادثـة نسائيـة واحـدة عن طـريقى.. عن طـريق السويتش.. لابـد انـه يستعمل تليفونـه الخصـوصـى فى محـادثـاتـه التليفـونيـة.. وأنا أكـره التليفـونـات الخصـوصية.. انى اعتبرهـا تحديـا لسلطاتى.. اعتبرها بمثابة اتهام لى فى امانتى!

وتسللت إلى مكتبه يوماً، وعبثت فى آلة التليفون الخصوصى، وخربتها!

وحدث ما توقعته، عاد الأستاذ إلى مكتبه، واتصل بى صارخا:

— تليفونى خسران يا عبده.. شوف لك طريقة.. صلحه حالاً..

قلت وهو لا يرى ابتسامتى:

— حالاً ياأستاذ .. حاتصل با المصلحة!

وقال الأستاذ :

— طيب اطلب نمرة ١٢٦١٦ .. وادينى الخط على طول!

وطلبت له النمرة .. واستمعت ..

استمعت إلى أجمل صوت نسائى مرَّ بأذنى، فى عمرى كله.. صوت رقيق ناعم خجول ..

لا بد انها فى الثامنة عشرة من عمرها. ولا بد انها سمراء.. ولا بد انها من عائلة كبيرة.. انى أكاد أراها فى صوتها.. عيناها السوداوان يثقلهما الخفر.. وشفتاها المكتنزتان.. ووجنتاها الناضجتان المصهورتان بحرارة شبابها.. وشعرها الأسود الطويل كليل عاشق.. و.. ان صوتها يتسلل من أذنى إلى خيالى.. إلى قلبى..

وسمعته يقول لها :

— حاشوفك امتى ؟

قالت فى خفر :

— ما انت شفتنى امبارح ..

قال وفى صوته تنهيدة :

— امبارح .. يعنى فات اربع وعشرين ساعة.. يعنى ألف وربعمائة وأربعين دقيقة.. يعنى ستة وثمانين ألف وربعميت ثانية.. ولسه ماوحشتكيش!

هذا المنافق .. كيف استطاع ان يحسب كل هذه الأرقام.. لا بد انه حسبها بالورقة والقلم قبل ان يحادثها..

وقالت له فى سذاجة :

— وحشتنى .. وحشتنى قوى !

قال :

— أشوفك بكره .. بس مش فى الشارع .. كفاية اللى حصل .. الناس

كلها عارفاني وكل ما اقعد معاكي في حتة يشاوروا علينا.. باحس ساعتها كأن الناس كلها واقفة بيني وبينك..

قالت :

— بس انت عارف .. أنا ما اقدرش أروح الشقة!

قال :

— تبقي ما بتحبنيش .. ما عندكيش ثقة فيّ..

قالت مرتبكة :

— بس ..

قال :

— مرفت .. علشان خاطري .. وحياتي عندك .. ما تخلنيش أحس انك خايفة مني..

قالت في استسلام:

— طيب بكره الساعة ستة .. بس مش حاتأخر.

وانتهت المحادثة التليفونية..

وسرحت انا .. وجدت نفسي اعيش مع مرفت.. واخذت اتصورها وهي في الشقة مع الاستاذ زكي.. واحسست بشيء يتململ في صدري كاني أغار عليها.. كأني أريد انقاذها من الأستاذ..

ولم أنم ليلتها .. وصوتها يملأ اذني وخيالي..

وعدت في اليوم التالي ارابط أمام السويتش.. أريد ان اسمع صوتها من جديد.. وأتمنى ان يحدث شيء يمنعها من لقاء الأستاذ.. ولكنها لم تتكلم.. ولم أنم أيضاً.. قضيت الليل اتقلب على جنبي.. أريد ان اعرف ماذا جرى في الشقة.. اريد أن اعرف.. يجب ان اعرف.. وطبعا لم اصلح تليفون الأستاذ الخصوصي..

وتكلمت مرفت في اليوم التالي.. كانت سعيدة.. في صوتها رنين كرنين الشخاليل.. كصاجات نجوى فؤاد.. وسمعته يقول لها:

— بعد ما سبتك قعدت افكر في يوم ما تيجي وتقعدي في الشقة على طول.. تبقى بيتك.. وبيتي..

قالت فى دلال:

— بس لازم تغير الصورة اللى فى الانتريه.. مش عاجبانى..

قال :

— بكره لما تيجى تشيليها بايدك.. وتعملى فى الشقة اللى انتى عايزاه..

قالت :

— بس توعدنى انك ما تتشاقاش.. انت كنت امبارح شقى قوى..

قال المنافق :

— ده قلبى ..

وحددا موعداً آخر للقاء فى الشقة.. ولم استطع ان اقف فى وجه ثورة الأستاذ على تليفونه الخصوصى الخسران، فأصلحته له.. وحاولت بعد ذلك ان اقاوم..

حاولت ان ابعد عن أذنى وخيالى صوت مرفت، وصورتها وهى مع الأستاذ فى الشقة، ولم استطع، كنت احس بأنى اتستر على جريمة، بأنى اتخلى عن مرفت، اريد ان اعرف ماذا جرى لها، يجب ان اعرف..

وتسللت مرة ثانية، وعبثت فى تليفون الأستاذ الخصوصى، وخربته، وعاد الأستاذ يصيح فى وجهى:

— التليفون خسر تانى يا عبده، شوف لك طريقة!

قلت فى برود :

— اظن العدة لازم تتغير .. حانكتب للمصلحة علشان تركب عدة جديدة..

قال وهو يزفر :

— طيب اطلب ١٢٦١٦ .. وادينى الخط على طول!

وطلبت النمرة بلهفة، وسمعت صوتها يملأ أذنى كأنه الحياة، ولكن، ان فى صوتها رنة غريبة، رنة حزينة خائفة..

ثم سمعتها تقول له :

— أنا خايفة يا زكى !

قال وهو أكثر جرأة عليها :

— قلت لك ما تخفيش، اطمئنى !

قالت :

— يعنى حانتجوز صحيح؟

قال :

— طبعاً ، بس ادينى شهر واحد انظم فيه نفسى، وحاتلاقينى عندكم فى البيت!

واحسست ان الجريمة قد وقعت ..

وقال لها بصوت آمر :

— حاشوفك امتى ؟

قالت كأنها جاريته :

— زى ما انت عايز ..

قال فى عظمة :

— بكرة .. نفس الميعاد !

قالت :

— حاضر ..

واحسست ان قلبى ينقبض.. احسست ان مرفت تبكى بعد ان وضعت سماعة التليفون..

واحسست برغبة فى البكاء..

ومر شهر، وأنا فى كل يوم اسمع صوت مرفت يزداد ضعفا وهزالا، حتى يصبح كصوت الشحاذين، فيه استجداء وفيه خزى، ولم يعد الأستاذ يطلبها فى التليفون بل هى التى تطلبه.. واستطاع ان يجد حجة جديدة بعد أن انقضى الشهر .. انه مسافر إلى الاقليم الشمالى لعمل تحقيق صحفى.. وانا اصلح له التليفون الخصوصى يوماً، وافسده يوماً، وقلبى معلق بشفتى مرفت..

وسافر الأستاذ فعلاً.. وعاد، ولم يفكر فى ان يطلب مرفت فى التليفون، انما هى التى طلبته، وسمعت صوتها.. وكانت تبكى.. تبكى فى رعشة وخوف:

— زكى .. أنا حامل!

وقال الأستاذ كأنه لم يكن ينتظر ان تكبر جريمته إلى هذا الحد:

— إزاى ده .. انتى متأكدة !

قالت من خلال دموعها :

— متأكدة يا زكى.. قول لى اعمل ايه.. ما تسبنيش اعمل معروف.. فى عرضك!

— قال :

— ومالك خايفة كده .. دى حاجة بسيطة.. انا حاتفق لك مع دكتور.. وكل حاجة تروح لحالها..

وارتفع بكاء مرفت:

— يهون عليك تموتنى يا زكى ..

وقال يقاطعها :

— تموتى ايه .. دى عملية بتتعمل ميت مرة فى اليوم..

وقالت هالعة :

— ماأقدرش .. ماأقدرش .. انت وعدتنى اننا نتجوز..

قال فى سخط :

— الحق علىّ انا اللى عرفت بنات صغيرين .. ياستى مش معنى اننا نتجوز،اننا نخلف قبل الجواز.. خلاص.. بكرة احدد لك ميعاد مع الدكتور.. اوريفوار..

وألقى السماعة، قبلها ..

وكرهته .احسست بقوة ضخمة تدفعنى لأن أقوم واقتله، ولكنى لم استطيع ان افعل شيئا الا ان أسكت، وابتلع دموعى!

وفى اليوم التالى اتصل بها، وقال لها ان الدكتور سينتظرها فى الساعة الحادية عشرة صباحاً، وانها تستطيع ان تعود إلى البيت فى الساعة الواحدة، دون ان يلحظ احد من اهلها اى شيء.. ثم لم ينتظر ان يسمع ردها.. أو بكاءها..

ووضع سماعة التليفون، ثم عاد ورفعها وقال لى:

— لما الست دى تضرب تليفون تانى قول لها مش موجود، فاهم.. ولما تصلح التليفون الخصوصى، ابقى اطلب تغيير نمرته عايز نمرة سرية..

قلت في ضعف، كأنى مرفت .. كأن الأستاذ اعتدى على عرضى انا الآخر:

— حاضر ..

وتكلمت مرفت.. ولم اقل لها ان الأستاذ ليس موجوداً، بل حولت اليه الخط.. وقلت له بسرعة :

— اتفضل كلم ..

وسمعتها تقول له :

— انا خايفة يا زكى .. مش قادرة اروح للدكتور وحدى، لازم تيجى معايا..

وصرخ في وجهها :

— ايه لعب العيال ده .. انتى عايزة الناس تقول ايه لما يشوفونى داخل عيادة دكتور أمراض نسا..

— انت ما بيهمكش الا نفسك .. ما بتخافش الا على نفسك.. وأنا يا زكى.. انا..

ولم يمهلها.. القى السماعة من يده..

ولكن مرفت لم تلق سماعتها.. ظلت ممسكة بها في يدها، وهى تبكى.. كأنها تبكى لى..

ولم أطق.. حولت الخط مرة ثانية إلى الأستاذ، لعل بكاء مرفت يشق قلبه الحجر.. وسمعته يصرخ:

— انتى برضه .. احنا مش حانخلص من الدوشة دى.. أنا مش عايز اسمع صوتك بعد كده.. و..

ولم احتمل ثورة السافل، وتدخلت في الحديث دون ان أدرى، وقلت له كأنى احاول أن انصحه:

— ما يصحش يا أستاذ.. خلى في قلبك رحمة.. أنت برضه انسان.. و..

وصرخ الأستاذ :

— أيه ده .. مين بيتكلم .. عبده .. وقعتك سوده ..

ثم ترك مكتبه ووجدته داخلاً علىّ فى غرفة السويتش كالمجنون ، وانهال علىّ صفعا وركلا ، وهو يقول :

— أنا حاوديك فى داهية، يا حرامى، تسمع المكالمات.. يا ابن الـــ.. يا ابن الـ.. يا ابن الـ..

ولم أرد صفعاته .. اكتفيت بأن أحمى نفسى منها، أحسست ساعتها انى كمرفت.. ليس لى حق عليه.. ولا أستطيع أن آخذ بثأرى منه.. وأخذت أردد وهو يضربنى:

— اتجوزها يا أستاذ.. حرام عليك يا أستاذ، دى بنت غلبانة يا أستاذ.. اتجوزها خلى عندك انسانية..

وهو لا يزال يضربنى..

ولم يكتف الأستاذ.. ذهب الى صاحب الجريدة واتفق معه على طردى من العمل، بعد أن هدد بالاستقالة من رئاسة التحرير، إذا لم أطرد..

وطردت..

وأصبحت عاطلا..

ولم أعد أدرى ما يحدث لمرفت.. وصوتها لا يزال يملأ أذنى وخيالى..

وبعد..

قد تسألوننى لماذا لم أهدد الأستاذ بإفشاء سره ، اذا لم يعدنى الى العمل..

انكم بذلك تسيئون إلىّ.. فإن أهم ما أعتز به هو شرف المهنة.. وشرف المهنة يحتم علينا أن نحتفظ بالأسرار التى نستمع إليها، وألا نستغلها حتى ولو كان من بينها سر جريمة..

حد منكم معاه سيجارة!!

●●●



بلا زواج



اني أعيش بعيدا.. بعيدا جدا.. بلدى صحراء.. خصها الله بالدين والدنيا.. فأنزل وحيه على أرضها، وفجر من رمالها البترول..

وقد لا تهمكم قصتي، بل قد لا تفهمونها، فأنتم لا ترونا إلا من خلال نوافذ السيارات الكاديلاك، ولا تسمعون منا إلا رنين الذهب.. انكم لا ترون الدموع التي تملأ عيوننا ، ولا تسمعون الآهات التي تئز في صدورنا كأزيز النار!

ورغم ذلك، فاسمعوا قصتي.. لتعرفوا نوعا من العذاب لم يخطر على أرضكم، ولم تتعرض له بنت من بناتكم..

هل سمعتم عن قوم يسمون «بني خضير»؟

طبعا، لا..

ان «بني خضير» هم جماعة من المولدين.. أي الذين ليس لهم أصل.. ليس لهم جد يستطيعون أن يسموه، وهم أبناء السلالات المختلفة.. فإذا تزوج عربي من امرأة تركية مثلا ، أو تزوجت عربية من رجل هندي.. فأبناء هؤلاء هم «بنو خضير»..

وعندكم ، اذا لم يعرف الطفل أباه، فقد يعتبر ابن زنا، وقد ينبذه المجتمع، ويخصه بمعاملة شاذة تشعره بوضاعته..

ولكن عندنا، لا يكفي أن يعرف الابن أباه ، بل يجب أن يعرف جده، وجد جده ، الى أن ينتهي نسبه الى قريش ، أو الى قحطان ، الى قبيلة من القبائل المعروفة.. وإلا فهو ضائع ، يعامل معاملة بني خضير.. فإذا كان رجلا فليس من حقه أن يتزوج من بنات الأسر الكريمة، وإذا كانت بنتا فليس من حقها أن تتزوج من رجال القبائل المعروفة.. ولو حدث أن تزوج رجل خضيري من فتاة من قبيلة أخرى.. يقتل، وتقتل معه الفتاة.. وإذا حدث أن تزوجت فتاة خضيرية من أحد رجال القبائل، قتلت.. وقتل الرجل أيضا.. قتله أبوه، أو إخوته أو بنو عمومته، تخلصا من عاره..

وربما تكونت سلالة «بني خضير» منذ أيام الفتوحات الاسلامية، عندما كان الجنود العرب يتزوجون من بنات البلاد التى يفتحونها، ويعودون الى الصحراء ومعهم زوجاتهم، فأرادت القبائل العربية أن تحمى نفسها من هؤلاء الدخلاء، أن تحمى دماءها النقية من دم الأغراب، ففرضت على أبناء هؤلاء الجنود، هذا الذل، ووصمتهم بالعار، وظلوا يعانون الذل والعار الى يومنا هذا..

هل تدهشون وأنتم تقرأون هذا الكلام؟

لا تدهشوا، فقد قلت لكم انكم لا تعرفون بلادى.

وأنا فتاة من بنى خضير..

ولم أكن وأنا صغيرة أستطيع أن أفهم بالضبط معنى أن تكون الفتاة من بنى خضير.. فنحن نعيش حياة عادية كحياة كل الناس، بل نحن نعيش فى مستوى أرقى من مستوى كثير من الناس، فأبى تاجر أفاض الله عليه بالرزق، واستطاع أن يجمع ثروة كبيرة، وأصبحنا نملك ثلاث سيارات، وفيلا أنيقة مكيفة الهواء، وفريجيدير، وراديو، وسينما منزلية، وخدما وثيابا على الحرير، و..و..

وعواطفى كعواطف كل الناس.. أحب أبى وأمى.. وأحب صديقاتى.. وأحب خدمى.. وأحب الفقراء.. كان قلبى دائما مفعما بالحب.. والحب يشيع فى نفسى السعادة..

وأكثر من ذلك.. لقد حرص أبى على تعليمى، فأصبحت أرقى ثقافة من كثير من بنات قريش وقحطان.. وكنت أقرأ كثيرا.. ثم بدأت أكتب.. كتبت قصصا لم يقرأها أحد.. وكتبت خطابات كنت أرسلها الى الكتاب العرب الذين أقرأ لهم..

لم يكن فى حياتى شيء يقنعنى بأنى أقل من غيرى من البنات.. بالعكس.. كل شيء كان يقنعنى بأنى أرقى منهن.. أرقى منهن بعقلى وعاطفتى.. وأجمل منهن.. نعم، أنا جميلة.. ان الدماء المختلطة التى تجرى فى عروقى، قد جمعت أجمل ما فى البلاد العربية، وأفاضت به على..

إلى أن قابلته..

كنت مع أمي ق زيارة عائلته، عندما دخل علينا.. فتى ق العشرين، عيناه واسعتان ينطلق من سوادهما شعاع يخلع القلب، ووجهه أسمر نحيل قوى، وأنفه معقوف أشم، كأنه منقار صقر، ولحيته الصغيرة، وشاربه، انه فتى، يسير ق عباءة من شبابه، فتى الحلم الوردى!

وأسرعت أخفى وجهى بيدى.. لا أدرى لماذا، ربما أردت أن أضع يدى على قلبى، فأخطأت ووضعتها على وجهى، ولمحت عينيه تنظران الى، وشعاعهما يخلع القلب.. ثم رأيت رموشه ترتعشان فوق عينيه كأنها ترتعش بخفقات قلبه..

وقامت أمي واقفة لمقدمه، وقمت معها، وصافحنى، وأحسست بيده تضغط على يدي، كأنه يحاول أن يقبض علىّ ولا يتركنى..

ثم انسحب..

وعدت الى بيتى أحلم به..

وجاءتنى احدى جوارى عائلته تهمس ق أذنى بكلمة الحب، انه يحبنى، وهو يحلم بى، وهو يريدنى.. ويسأل كيف يقابلنى!

ورفضت أن أقابله، مكتفية بأحلامي معه!

وأرسل لى خطابا، كله حب.. كله حب!

وأرسلت له خطابا، أعنف حبا!

وتوالت الخطابات بيننا، أصبحت حياتى كلها خطابا أتلقاه منه، وخطابا أكتبه إليه.. والحلم يرتفع بى.. ويرتفع.. الى السماء.. وأنا ق انتظار أن يخطبنى، ويتزوجنى، وانتقل الى قصره.. الى قصر أحلامي!

ثم لم أعد أطيق أن أحلم وحدى، فأشركت أمي معى.. أطلعتها على سرى.. فإذا بها تصيح ق ذعر:

— دعك منه !

قلت ق دهشة :

— لماذا ؟

قالت :

— انه ليس لك!

قلت :

— انه يحبنى !

قالت :

— انه لن يتزوجك..

قلت :

— من أدراك ؟

ونظرت الى أمى فى اشفاق، كأنها تخاف علىّ من ثقل الحقيقة، وقالت فى صوت رهيب :

- انهم لا يتزوجون من بنى خضير !

وخرسـت ساهمة. وبدأت حقـائق كثيرة تنكشف أمامى.. هـذا المجتمع المنعزل الذى نعيش فيه.. هذا الذل والخنوع الذى يبدو على أبى رغم ثرائه.. هذا التعالى الذى تعاملنى به صديقاتى وكنت لا أنتبه إليه لفرط حبى لهن.. وتنبهت الى اننى عنـدمـا أذهب وأمى لـزيارة عـائلـة كبيرة.. تبـالغ أمى فى احترامها لربة البيت.. و..و..

كثير من المظاهـر التى تحيط بى بدأت تنكشف أمـام عينى.. ورغم ذلك لم أصدق نفسى.. كان حبى أقوى من الحقيقة التى أعيش فيها.. كان حبى يزودنى بالأمل فى أن حبيبى يستطيع أن يغلب الحقيقة..

وذهبت الى لقائه..

ووضع هو خطـة اللقاء فى خطاب أرسلـه الى.. سـأركب سيارتى الى بيت احدى خادمات عائلتـه.. وأتسلل من باب، وأركب سيارة أخرى تحملنى الى بيت عبد من عبيده.. حيث ينتظرنى..

ولقيته..

وضمنى الى صـدره ليسمعنى دقات قلبـه.. ومست شفتـاه شفتى.. ثم أخذ يروى لى قصة حبه.. ببساطة.. وهدوء..

وقلت له فجأة، كأنى لم أعد أطيق السكوت:

— هل تتزوجنى ؟

ورفع إلىّ عينين دهشتين كأنى أطلـب مستحيـلاً ، ثم أطـرق بـرأسـه، وقال :

— يا ليت..

قلت متهكمة :

— لعل المانع خير..

قال ببساطة :

— سيقتلونني.. ويقتلونك !

قلت :

— هذا أرحم !!

وعـــدت الى البيت شـــائرة.. وخيل إلى في ثـورتـي انى أستطيع أن أجبر حبيبى على أن يتـــزوجني، لا لأني أحبـــه فحسب، بل لأمسح العـــار عن جماعتي.. لأمحو الأسطورة السوداء التي يعيش فيها بنو خضير..

وعدت أقابله .. قابلته كثيرا.. دائما في بيت العبد.. وكان دائما عفا شريفا معي.. ولكنه كان دائما يائسا من زواجي.. وصرخت فيه مرة:

— هل تجدنى أقل شرفا من الأعرابيات ؟

قال :

— أكثر منهن شرفا ؟

قلت :

— قبلني.. هل تجد لقبلتي مذاقا آخر غير مذاق قبلات بناتكم!

قال :

— ارق مذاقا !

قلت :

— اذن لماذا.. لماذا.. لا تتزوجني!

قال :

— لأن مئات السنين تقف بيني وبينك، وتحكم علينا ألا نتزوج!!

وكـــانت أمي تحس بما يجري لي.. كـــانت ترى ثـورتي في قلبي.. وتـــرى الحقد يمــلأ صدري على المجتمع الذى أعيش فيــه.. وترى السخط في عيني كلما نظرت إليها وإلى أبي.. ســـاخطة عليهما لأنهما راضيان بوضعهما بين النــاس، ورضيا لي بنفس الوضـــع.. لقـــد أصبحت أكره.. أكـــره أمي وأبي..

وأكره بلدي .. وأكره كل الناس .. كلي كراهية..

وأخيرا قرر أهلي أن يزوجوني.. زوجا من بني خضير.. ورضي حبيبي أن يتركني أتزوج، وسافر الى الخارج لعله ينساني، وينسى حبي..

ودخلت على زوجي وأنا مصممة على ألا أحمل منه.. اني لا أريد أن تكون لى بنت تعاني ما أعانيه.. لا أريد أن أضع في الحياة بنتا موصومة بالذل والعار من قبل أن تولد.. لا أريد أن يكون لى بنت من بني خضير!

وتحملت أنفاس زوجي الكريهة.. تحملت العذاب كله.. ولكني صممت ألا أحمل منه.. وجن الزوج المسكين.. وصب على جنونه.. ولكني كنت مصممة.. مهما حدث فلن أضع بنتا أو ابنا من بني خضير..

وتزوج زوجي علىّ.. ثم.. لم يعد يحتملني.. فطلقني!

وعاد حبيبي، وهو لا يزال يحبني..

عاد يطلب لقائي..

وقابلته في بيت العبد..

ولا زلت أقابله.. دائما في بيت العبد..

ولم يعد لقاؤنا عفا ولا شريفا.. وأنا راضية، فهذا كل نصيبي من الحياة.. وأمي تعلم وتسكت. وأبي يعلم ويسكت فهما من بني خضير!

وحبيبي لا يستطيع أن يقدم لى أكثر من هذا النصيب.. اني لست عبدة فيشتريني ويأويني، ولست حرة فيتزوجني.. أنا من بني خضير.. وغاية ما يستطيع أن يقدمه لى هو أن يقابلني في بيت العبد!!

اني أكتب قصتي..

ثم سأنتحر ..



مدام انچیل



لا أستطيع أن أنسى أبدا «مدام انجيل».. وقد تمر بى شهور طويلة لا أذكرها، ثم فجأة وأنا جالس على مائدة الطعام، أو وأنا أعمل فى الشركة، أو وأنا خارج من السينما، أراها منتصبة فى خيالى بوجهها النحيل المغضن، وجسدها الرقيع الجاف كسيخ من الحديد، ونظراتها النشطة، والشارب الخفيف فوق شفتيها، وشعرات متناثرة فوق ذقنها، ويديها المعروقتين الخشنتين، وذراعيها المكسوتين بالشعر، وشفتاها مقلوبتان دائما كأنى أزمة اشمئزاز، ولغتها العربية المكسرة التى تنطقها بلهجة يونانية..

وقد عاشت مدام انجيل فى صباى.. كانت تأتى إلينا لتحيك ثياب أمى، وتبقى فى البيت طول النهار.. وكانت أمى تحتفى بها احتفاء خاصا، وتعد لها ألوانا مخصوصة من الطعام.. كان أهمها المكرونة الطويلة «الاسباجتى»، واللحمة المشوية، والعيش الفينو.. حتى انى كنت كلما رأيت المكرونة فى البيت استنتجت توا ان مدام انجيل ستتغدى معنا..

وربما كان سر اهتمام أمى بمدام انجيل، انها أحسن وأمهر خياطات حى الظاهر.. ولكن الأرجح ان هذا الاهتمام كان له دافع آخر.. دافع أقوى.. وهو شعور أمى بأن مدام انجيل «خوجاية».. فكانت تعد لها طعام الخواجات.. وتحاول أن تبدو أمامها أكثر تمدينا كالخواجات.. وكنت أرقب أمى وهى تحادث مدام انجيل، وألاحظ انها — أى أمى — تتعمد استعمال الكلمات الأجنبية التى تعرفها.. وكلها كلمات سانجة قد لا يكون لها دخل فى الحديث.. بونجور.. مرسى.. كورسيه.. بابيون.. كلمات من هذا النوع، كانت أمى تلتقطها من هنا وهناك لتتباهى بها أمام مدام انجيل، كأنها تحاول أن تبدو «خوجاية» مثلها..

فإذا ما تحدثت مدام انجيل، استمعت إليها أمى وهى مبهورة الأنفاس، كأنها تستمع الى حكمة أفلاطون ومنطق سقراط.. كأنها تستقبل مدنية

جـديدة، تفتـح أمامهـا أبوابا مغلقة من أبواب الحياة..

وقـد أحسـت مدام انجيل بتأثيرهـا على أمي.. وربما أخذت تستغل هـذا التأثير.. وأخذت العلاقـة بينهما تتطور الى نوع من الصداقـة، وبدأت مدام انجيل تأتي لزيـارتنا دون أن تكون أمي في حاجـة إلى صنع ثياب، وتقضي معنـا دائما طول النهـار.. وأصبح لها نوع من السيطـرة علينا كلنـا، وأمي الطيبـة مستسلمـة لها، مبهـورة بلهجتهـا الأجنبيـة، وأبي الهادئ يكتفي بابتسامته الساخرة ويترك مدام انجيل تفعل بأمي ما تريد..

وكانت مدام انجيل متعالية دائما علينا، مشمئزة دائما من الطريقة التي نعيش بها، ودائما تصدر أوامرها ونصائحها كأنها تحاول أن تـرفعنا إلى الدنيـا الراقية التي تعيش فيها، دخلـت مرة في حجرتي وأنا نـائم، ووجدت النافذة مغلقة، فصاحت بلهجتها اليونانية تصدر أوامرها إلى أمي:

— مش كويس كده يا مدام.. لازم الشباك يفضل مفتوح علشان الهوا لازم يخش للولد.. أنا بنتي ماريا لازم تنام والشباك مفتوح..

وكانت أمي تـزهو كلما خاطبتهـا مدام انجيل بلقب «مدام».. كـان هذا اللقب يقنعها بأنها أصبحت «خوجاية» كمدام انجيل..

وسرعان ما فتحت أمي الشباك، وارتعشت أنا من البرد دون أن أستطيع الاعتراض..

وفي مرة رأتني «مدام انجيل» وأنا آكل الملوخية بالعيش أغمس العيش في طبق الملوخية ثم أرفعها الى فمي.. فصاحت:

— مش كده يـاخبيبي.. احنا كمان بنعمل ملوخية في البيت بتـاع احنا.. انما بناكله با لمعقة زي الشوربة.. بنتي ماريا بتاكل الملوخية با لمعقة، لازم تكون زي ماريا..

وشربت الملوخية با لمعقة، وأمي أيضا بدأت تشرب الملوخية با لمعقة..

وفي مرة أخرى نظرت الى مدام انجيل بعينيها القويتين، وقالت:

— الصحة بتاعك مش كويس.. لازم تاخد كينا بسليري، أنا بندي بنتي ماريـا كل يوم واحد كبـاية كينـا بسليري.. علشان بيجي كويس خـدودها يبقى زي الدم!..

وأسقتنى أمى الكينا بسليرى رغم صراخى..

ولم أكن قد رأيت ماريا ابنة مدام انجيل، ولم تكن أمى قد رأتها، فهى لم تأت بها الى بيتنا أبدا، رغم إلحاح أمى، كما اننا لم نكن نزور مدام انجيل فى بيتها، وربما اعتقدت أمى أن رؤية ماريا شرف كبير لا نستحقه..

وكنت أتخيل ماريا، كنت أقضى ساعات طوالا وأنا أرسم لها صورة فى خيالى، كنت أتصورها ذات شعر أصفر طويل، ووجه أبيض مستدير ملىء بالصحة والعافية، وخدودها فى لون الدم، وكنت كلما رأيت صورة لطفلة فى احدى المجلات، أو فى اعلان عن أحد الأدوية القوية، أتخيل ماريا مثلها.

كنت أتخيل ماريا صبية قوية.. قوية جدا. أقوى منى، الى درجة انى كنت أخافها أحيانا.. وكنت أتخيلها مخلوقة لا تمرض أبدا.. لا تصاب بالسعال الديكى، ولا بالحصبة، ولا بالأنفلونزا.. الى آخر الأمراض التى أصبت بها الواحد بعد الآخر.. وكنت أتخيلها نظيفة.. نظيفة جدا.. نظيفة دائما.. لا تلعب ألعابنا.. ولا تأكل بطريقتنا.. ولا تتحدث كما نتحدث.. أتخيلها كملاك لا يعيش على الأرض مثلنا..

وأصبحت ماريا هى محور حياتى..

ان مدام انجيل تنصحنى دائما أن أفعل ما تفعله ماريا..

وأمى تضربنى وتقول لى: ماريا أصغر منك.. وتفعل كيت وكيت وأنت لا تفعل شيئا..

وأصبحت أكره ماريا، وأخافها، وأحسدها، وأحقد عليها، وأتمنى أن أراها..

وفجأة.. انقطعت مدام انجيل عن زيارتنا..

ومضى اسبوع واسبوعان، ثم جاءت لزيارتنا فجأة كما اختفت فجأة.. جاءت ترتدى ثوبا أسود.. وقوامها الذى كان كسيخ الحديد أصبح كعود الخيزران يتلوى وهى تخطو.. وصوتها القوى أصبح صوتا ضعيفا منهارا..

وسألتها أمى:

— مالك يا مدام انجيل..

وبكت مدام انجيل، وقالت:

ـــ ماريا بنتي..

وخبطت أمي على صدرها ، وقالت:

ـــ ما لها ؟

وقالت مدام انجيل ودموعها تنهمر:

ـــ خلاص.. مورتو..

وصرخت أمي:

ـــ ماتت.. ماتت ازاى؟

وقالت مدام انجيل:

ـــ كان عنده أنيميا..

ونظرت إلىّ أمي ثم احتضنتني كأنها تحميني من الموت.. ونظرت أنا الى مدام انجيل كأني لا أصدقها..

وظلت مدام انجيل تبكي وتحدثنا عن ماريا.. ثم أخرجت من حقيبتها صورة لها.. ونظرت أنا وأمي الى الصورة فى لهفة، فإذا بها صورة فتاة عجفاء، صفراء، ممصوصة الوجه!

وبعدها حدث انقلاب فى حياتي..

أصبحت أمي تغلق النافذة عندما أنام.. وسمحت لى بأن آكل الملوخية بلقمات العيش، وأصبحت تنهرني اذا حاولت أن أشربها بالمعقة، وتصيح فىّ: « يا واد كل بالعيش، خليك تسمن شوية».. وامتنعت عن اعطائى كؤوس الكينا بسليرى.. و..و.. تحررت أمي من سيطرة مدام انجيل..

ولكني لا زلت أذكرها..

●●●



أنا والسماء



اسمي يحيى شاكر ..
وأنا قبطي ..
ومن عـادتي كلما قدمت نفسي لأحـد ، ان أعقب ذكـر اسمي ، بـذكـر ديـانتي.. قبطي.. حتى لا يلتبس عليـه الاسم ، فيعتقـد انى مسلم.. فإن اسمى كما ترى يحتمل الديانتين، ويشترك بين المسلمين والأقباط..

ولم تكن هذه هي عادتي دائما.. منـذ خمس سنوات فقط، لم يكن اسمى يسبب مشكلـة في حيـاتي، ولم يكن يهمنى أن أحسب بين المسلمين أو بين الأقبـاط، وأكثر من ذلك، لم أكن أشعـر انى قبطي، أو انى لست مسلما، لم يكن الدين مشكلة في حياتي.. فأنا لست متدينا ، وأبي ليس متدينا ، وليس معنى ذلك انى وأبي منحلان أو ملحدان، ولكننـا فقط لا نتمسك بالطقوس الدينية ولا نحسب لها حسابا في برنـامجنا اليومي ، وأمي وحدها هي التى تذهب الى الكنيسة وتحتفل بالمناسبات الدينية، ولكن ذهابها إلى الكنيسة لم يكن يثير في عقلي معنى دينيا.. كنت أحس بها وهي ذاهبة إلى الكنيسـة كأنها ذاهبة لزيارة إحدى صديقاتها مجرد احساس بأنها خارجة من البيت.. كما كان احتفالها بـالمناسبات الدينيـة لا يثير في الاحسـاس بالمناسبـة نفسهـا.. كان كل مـا اهتم به هو ما يقـدم في هذه المناسبـات من الكعك والحلوى.. ورغم ذلك فإنى..

ولأروى لك القصة من أولها :

لقد كنت في التـاسعة عشرة من عمرى عندما التقيـت بسعاد لأول مرة.. كنت واقفا في الطابـور أمام شباك سينما مترو.. أتقدم نحـو الشباك خطوة خطـوة، وعندمـا لم يعد أمـامي سـوى شخص واحد، اقتربت منى سعـاد، وقالت في حياء وهي تبتسم ابتسامة كقطعة السكر:

ـــ تسمح تقطع لي تذكرة معاك..

والتقيت بعينيهـا الضـاحكتين، ووجههـا الأسمر، وشعـرهـا الأسـود

المنسدل على كتفيها كوشاح من الليل.. وأبديت استعدادى مباشرة لأشترى لها تذكرتها.. ولكنها كانت تريد ثلاث تذاكر.. كان معها صديقتان..

وطبعا.. حجزت مقاعدهن، وحجزت مقعدى بجانبهن، وكانت حفلة الساعة الثالثة..

وتركتهن يدخلن دار السينما قبلى، ثم لحقت بهن، ووجدتها جالسة بين صديقتيها، ونظرت إليها نظرة آسفة ثم جلست بجانب صديقتها.. ولكن البنات ما لبثن أن تهامسن، ثم انتقلت سعاد وجلست بجانبى.. وقلت وأنا أحس بقلبى يقفز إلى حلقى:

— الكراسى كويسة؟

قالت :

— كويسة قوى.. مرسى.. ثم بدأنا نتحادث..

ولا أدرى كيف اتصل بيننا الحديث سهلا صافيا ، ليس فيه افتعال ولا تصنع.. كأننا كنا نختزن كل هذا الكلام ليقوله كل منا للآخر يوم لقائنا..

وانتهى الفيلم وقد شغلنا عنه الحديث..

وخرجنا على موعد..

ولا أطيل عليك.. لقد أحببتها.. وأحبتنى.. وفى خلال ثلاثة أشهر، كانت حياتى كلها تدور حول هذا الحب.. أعف وأقوى حب يمكن أن يخطر على قلب شاب فى مثل عمرى..

وعرفت عنى كل شىء.. عرفت انى نلت شهادة التوجيهية وأن أبى يملك محلا كبيرا لبيع الأقمشة فى الموسكى.. وأنى أشتغل معه.. وأنى فى خلال عامين سأنشىء محلا آخر أديره بنفسى فى شارع ٢٦ يوليو.. و..و..

لقد عرفت عنى كل شىء فى خلال هذه الشهور الثلاثة.. كل شىء.. أو هكذا اعتقدت..

الى أن كان يوم.. يوم أحد..

والتقينا كعادتنا عند أول كوبرى قصر النيل.. وبدأنا نسير على الكوبرى

لنجلس ــ كعادتنا أيضا ــ فى الكازينو المقام هنا على الضفة الأخرى.. وقلت لها خلال حديثنا.. وبكل بساطة:

ــ النهاردة ماما راحت الصبح الكنيسة.. ورجعت مصممة انها تجوزنى..و..

وقاطعتنى وقالت وهى تنظر إلىّ فى بلاهة:

ــ مامتك راحت الكنيسة؟

قلت وأنا أنظر إليها فى دهشة:

ــ أيوه !..

وارتعشت ابتسامة غريبة على شفتيها، وقالت:

ــ هى مامتك مسيحية؟

قالتها كأنها تكذب نفسها، وأجبتها ببراءة:

ــ طبعا..

واتسعت عيناها، وازدادت ارتعاشة الابتسامة فوق شفتيها، وعادت تقول:

ــ وأنت ، انت مسيحى؟..

ووجمت، شىء فى داخلى أشعرنى بأنى مقبل على اكتشاف خطير، مخيف، وقلت وأنا أنظر إليها كأنى أبادلها بلاهتها:

ــ أيوه!

وسكتت، واتسعت ابتسامتها، الابتسامة المرتعشة الفارغة، ثم ضحكت، ضحكة خافتة عصبية، وسرنا صامتين، وأنا واجم، وهى واجمة.. عقلى مشلول، لا أستطيع أن أتبين بالضبط ما حدث.. شىء كبير حدث، ولكنى لا أستطيع أن أتبينه، ولا أستطيع أن أسألها عنه، وعشرات الكلمات تتزاحم فوق لسانى، بينها كلمات اعتذار وكلمات توسل، وكلمات ثورة، وكلمات غضب، ولكنى لا أستطيع أن أنطق إحداها!

ووصلنا الى الكازينو، وجلسنا الى المائدة التى اعتدنا أن نجلس عليها، وحاولنا أن نتكلم، كلاما عاديا، كان كل منا يحاول أن يتجاهل الشىء الخطير الذى حدث، ولكننا لم نستطع أن نستمر فى الكلام، لم نستطع

حتى ان ينظر أحدنا الى الآخر، ومرت بيننا فترة صمت طويلة، وكل منا تائه العينين، يطل بهما فى النيل، كأنــه يبحث عن شــىء ضــاع منــه، ثم فجأة انهمرت الدموع من عينيها.. بكت، ورأيت دموعها، ورأيتها، تخرج منديلها الصغير لتخفى به دموعها، ثم قالت وهى تحاول أن تكتم نشيجها:

— أنا لازم أروح دلوقت..

قلت فى صوت خافت ضعيف:

— ليه ؟..

قالت :

— كده ، لازم أروح!

قلت وأنا أنظر إليها فى توسل :

— مش أحسن نقعد نتكلم !

قالت فى يأس :

— لا ، فيش لازمة، أروح أحسن، بدل ما نعذب بعض!

ثم قــامت واقفة! وأدارت لى ظهـرها، وابتعـدت فى خطوات سريعــة، وأنا لا زلت جالسا فى مكانى، لا أستطيع أن أتحرك، أنظر خلفها كأنى أنظر الى قلبى يطير من صدرى!..

وبدأت ساعتها أفهم !

لقـد كـانت تعتقـد أنى مسلـم، اختلط عليهـا اسمى، وأحبتنى على أنى مسلم.. وأنا، فى كل ما ذكرته لها عن نفسى، نسيت أن أذكر لها أنى قبطى.. لا، لم أنس، ولكن لم يخطـر ببـالى أن أقــول لها إذا كنت قبطيـا أو مسلما، لم يكن هذا شيئا مهما بالنسبــة لى، لم تكن ديانتى مشكلة فى حياتى حتى أذكــرهــا لها ، لم أكــن أشعــر انــى قبطى أو انى لست مسلما ، كــان كل ما أشعر به هو انى أحبها ، وهى تحبنى!

ولكن أفقت..

عرفت انى قبطى!..

وعـرفت ان اسمى قـد يخدع بعض النـاس، وأنها خديعـة فعــلا.. لأنى

لا أملك أن أحدد كل تصرفاتي، ولكن السماء هي التي تحدد لى كثيرا من شئوني..

وأشد ما آلمني ساعتها هو اني اكتشفت اني خدعت سعاد، دون قصد.. وخشيت أن تكون قد اعتقدت هي أيضا اني خدعتها..

وأذكر ليلتها اني حملت عذابي وذهبت لأسهر في كاباريه «البيروكيه» وجلست مع شلة من أصدقائي، أسكر، وجاءت احدى الراقصات لتجلس بيننا ، فوقفت مترنحا أقدم لها نفسي:

— يحيي شاكر..

ثم بسرعة قلت لها:

— قبطي..

وقبّلتني الراقصة على خدي وهي تقول:

— ياختي عليه..

ومن يومها.. تعودت كلما تعرفت بصديق جديد، أو بفتاة، أو بشلة.. أن أنتهز أقرب مناسبة لأعلن لهم اني قبطي حتى لا يلتبس عليهم الاسم، حتى أستطيع بعد ذلك أن أعيش بوضوح..

●●●

نسيت أن أقول لك..

لقد أرسلت لى سعاد بعدها خطابا طويلا.. لم تلمني فيه، ولم تتهمني بخداعها.. قالت لى انها تحبني.. ولكنها تفضل أن تتحمل عذاب حرمانها من حبها، عن أن نتعرض كلانا لعذاب أكبر..

ورغم ذلك..

فلا زلت كلما ذكرت اسمي ، أذكر معه ديانتي.. حتى أعيش بوضوح..

●●●



لا أملك شيئا

أخيرا ..



أخيرا عرفت سر عذابى، عرفت لماذا قضيت عمرى كله شاردة العقل موجوعة القلب، أبدو أحيانا كأنى مجنونة، وأحيانا أبدو كأنى أعقل بنت فى القاهرة، وأسأل نفسى فى فترات جنونى: لماذا جننت؟. وأسأل نفسى فى فترات تعقلى: لماذا أنا عاقلة؟. فلا أدرى سببا لجنونى ولا لتعقلى!

ولم يكن فى حياتى شيء أستطيع أن أشكو منه!

نشأت فى عائلة ثرية، تحبنى وتدللنى، وأبى وأمى مطلقان، طلقا وأنا فى الثانية من عمرى، وتزوج أبى من أخرى،وتزوجت أمى من آخر، ولكننى لم أكن أشكو من شيء، فامرأة أبى تحبنى، وتعاملنى برفق وحنان، بل انها أحيانا تغالى فى تدليلى، كأنى ابنتها، أكثر من ابنتها، ربما لأنها لم ترزق بأولاد.. وكذلك زوج أمى، إنه يحنو على دائما، ويبرر دائما تصرفاتى، ويقف بجانبى فى كل مرة اختلف فيها مع أمى، ولم يحدث أبدا أن اختلفت مع زوجة أبى، أو زوج أمى.. لم ينهرنى أحدهما مرة، أو يسبب خدشا فى نفسيتى!

وكان لى فى كل بيت حجرة خاصة بى، فى بيت أمى حجرة، وفى بيت أبى حجرة، وكنت أتنقل بين البيتين كما أشاء، دون أن يعترض أبى أو تعترض أمى.

ولكنى لم أكن أستريح فى أحد البيتين..

نفسيتى لم تكن تستريح..

كنت أحس دائما أنى أريد أن أهرب.. لا أكاد أبقى فى بيت أياما حتى يضيق قلبى، فأهرب إلى البيت الآخر.. ولا أكاد أبقى فى البيت الآخر أياما حتى أعود إلى البيت الأول..

ونفس الاحساس كان ينتابنى كلما جلست مع أبى وأمى!

كنت لا أكاد أجلس مع أبى، حتى أحس بأنى مشتاقة إلى أمى.. بل أحس أنى أحب أمى أكثر من أبى.. وأذهب إلى أمى، ولا أكاد أجلس معها.. حتى يداهمنى شوق إلى أبى، وأحس أنى أحبه أكثر .. أكثر من أمى..

وحتى اقتناعي بشخصية وحياة كل منهما.

كنت أحيانا أقتنع بأن شخصية أبى هى شخصية الرجل المثالى، والحياة التى يعيشها هـى الحياة التى أريدها.. الحياة المثالية.. ثم لا ألبث أن يتحول اقتناعى ناحية أمى رغم الخلاف الكبير بين شخصيتها وحياتها وشخصية وحياة أبى..

ومع الأيام كبرت هذه الأحاسيس فى نفسى، وأصبحت أحس كأنى أريد أن أهرب من البيتين، وأهـرب من الشخصيتين أصبحت لا أستريح إلا بعيدا عن البيتين، وعن أبى وأمى..

وأصبحت أهرب فعلا..

أهرب الى أين؟

الى الشبان..

كنت لا أكاد ألتقى بشاب حتى أهـرب معـه فى لقاء يـدوم سـاعـة أو سـاعتين، أستريح فيهما.. ثم أعود الى البيت ــ أحد البيتين ــ لأكتشف أنى لا أحب هـذا الشـاب.. وأن دمـه ثقيل، وأشعـر كـأنى أشمئـز من نفسى، ومنه.. ولكنى لا ألبث أن أعود فأهرب مع شاب آخر فى لقاء آخر..

وتعدد الشبان .. وتعـدد لقائى بهم.. وأصبحت أكثر جرأة.. أكثـر جنونا.. وأذكر انى كنـت فى السادسة عشرة من عمـرى، عندمـا قررت أن أخـرج للقاء شاب فى السـاعة الواحـدة بعد منتصف الليل.. هربـت من البيت ـ بيت أمى ـ والكل نيام، وعدت قبل أن يصحو أحد.. عدت وشعور غريب من الراحة يملأنى لا لأنى التقيت بشاب أحبه ـ فلم أكن أحبه ـ ولكن فقط لأنى هربت من البيت..

وفى هذه الأثناء بدأت تنتابنى رغبـة خبيثة فى مضايقة زوجة أبى، وزوج أمى.. كنت أفتعل المشاحنات معهما، وأثور فى وجهيهما، وأنتقى فى نقاشى كلمات ثقيلـة تجرحهما، بـل إنى فى مـرات كثيرة كنـت أستطيع أن أجعل زوجة أبى تبكى، وأن أجعل زوج أمى يفقد أعصابه، ثم بدأت أثور حتى على أبى وأمى، وأجلب عليهما النكد والهم..

وكنت أعلم أنى أنا البادئة فى هذه المشاحنات..

أنا المخطئة..

لماذا؟

لماذا أفتعل المشـاحنات مع ناس أعلـم أنهم يحبوننى؟! لماذا أعكـر حياة

أبى وأمى وهما لا يبخلان علىّ بشىء؟!

ولا أستطيع أن أجد الجواب..

واحتملنى الجميع..

احتملونى، وكلما ازدادوا احتمالا، ازددت وقاحة وجرأة عليهم.

ثم..

فجأة أيضا، قررت أن أتزوج..

أصبح كل همى أن أتزوج..

ولم يكن من الصعب على أن أتزوج ولكنى لم أكن أفكر فى الزواج.. بالعكس، كان تفكيرى منصبا على الاحتفاظ بحريتى.

ماذا حدث حتى تغير تفكيرى فجأة؟

لا أدرى..

انما تزوجت..

وكان زوجى شابا رائعا يعيش مع أمه بعد أن توفى والده ويقيم معها فى فيللا بناها حديثا فى المعادى.. وانتقلت لأعيش معهما..

وقد قلت أن زوجى كان رائعا.

وأمه أيضا كانت رائعة..

لقد أحبتنى أمه.. ودللتنى.. لم تدع يوما يمر دون أن تشعرنى بحبها، ودون أن تقيم لى عرشا من اهتمامها وحنانها..

وأحببت زوجى..

وأحببت أمه..

نعم، انى واثقة من أنى أحببتهما..

ولكن..

ما كادت تمر شهور قليلة، حتى بدأت نوبات الرغبة فى الهرب تنتابنى من جديد..

وقاومت!

قاومت كثيرا!

ولكنى لم أستطع أن استمر فى المقاومة طويلا ، فبدأت أهرب من بيت زوجى الى بيت أبى لأقضى فيه أياما ، ثم أهرب منه الى بيت أمى لأقضى فيه أياما أخرى!

و..

وزوجي يطيعني، يتركني أذهب الى بيت أبي أو بيت أمي متى شئت وأعود اليه متى شئت!

ولكني أحسست أني لن أكتفي بالهرب الى أمي وأبي.. بدأت أحس أني سأعود الى عادة الهرب مع الشبان!

بدأت أفكر في خيانة زوجي!

لا!

مستحيل!

لن أرتكب هذه الجريمة!

ولم أرتكبها فعلا، ولكن المقاومة العنيفة التي بذلتها، والكبت الكبير الذي عانيته، جعلني امرأة عصبية، شبه مجنونة، فأصبحت أختلق المشاحنات مع زوجي، ومع أمه، وأثور في وجهيهما، وأهينهما، وأجرحهما!

زوجي الذي أحبه..

وأمه التي أحبها..

ثم ..

لم أعد أطيق..

كان يجب أن أهرب..

وأخذت أسلم الطرق للهرب..

الطلاق!

نعم!

طلقت زوجي الذي أحبه..

وعدت أعيش في بيت أبي أحيانا وفي بيت أمي أحيانا!

وأصبحت أنطلق انطلاقات عنيفة..

أصبحت تمر علي شهور يتعدد خلالها عشاقي.. عشاق لا يربطني بهم حب، ولكن يربطني بهم نوع من الهوس والانحلال الذي يدفعني اليهم!

ثم تمر شهور أخرى أهدأ فيها، وأحفظ نفسي من العشاق، وأبدو عاقلة، عاقلة جدا.. وترفع أمي كفيها الى السماء وتحمد الله..

ولكني لا ألبث أن أعود..

أعود الى جنون الهرب..

وأخيرا !
وأنا فى الثلاثين من عمرى، وفى فترة من فترات هدوئى، اكتشفت عقدتى..
اكتشفت سر عذابى!
أتدرى ما هو السر؟
السر أنى طول حياتى لم أملك شيئا..
لم أملك أبى فهو ملك لزوجته !
ولم أملك أمي، فهى ملك لزوجها !
ولم أملك زوجي ، فهو ملك لأمه !
والبيوت التى عشت فيها، ليس بينها بيت أملكه!
بيت أبى ليس ملكى، ملك زوجته!
وبيت أمي ليس ملكى، ملك زوجها!
وبيت زوجي ليس ملكى، ملك أمه !
وقد كنت طول حياتى غريبة فى هذه البيوت.. كنت دائما ضيفة.. والانسان لا يستطيع أن يحتمل الشعور بالضيافة طول عمره، إنما يهرب منه الى الاحساس بالملكية.. حتى لو كانت ملكية ركن منزو صغير، لا يقاس بالقصر الذى يستضيفه..
ولذلك كنت أهرب..
كنت أهرب باحثة عن شىء أملكه..
وهذا هو سرى..
هذه هى عقدتى..
واسترحت عندما اكتشفت سرى..
عرفت طريقى..
انى سأتزوج مرة ثانية..
وسيكون لى بيت.. بيت لي وحدى ومعى زوجي..
بيت أملكه..
وسألد..
سيكون لى ابنة.. انى أريدها ابنة..
ان أعلى مراتب الملكية هى الأولاد.. وستكون ابنتى هى الدنيا التى سأملكها..



تاتا



عزيزى احسان :

انى أعرف أنك غاضب منى منذ أن عدلت عن خطبة انعام، وتركتها، وحطمت قلبها..

لا تحاول أن تنكر غضبك.. فانى لم أعد أرى على وجهك هذه الابتسامة الكبيرة التى كنت تستقبلنى بها.. ولم أعد أحس بحرارة يدك وانت تصافحنى. ولم أعد أسمعك تحدثنى كعادتك عن أحلامك الكبيرة، وتعدنى بأن تجبرنى على الاستقالة من الحكومة لأتفرغ للعمل معك فى دار روز اليوسف!!

ولك حق فى أن تغضب منى، وتتهمنى بالنذالة والسفالة.. كل ما أرجوه أن تسمع قصتى، لعل فى قصتى ما يخفف من غضبك ومن قسوة اتهامك.. قصتى التى اخفيتها عنك منذ عرفتك.. قصة حياتى كلها.. وستعرف بعد أن تسمع قصتى، انى عندما حطمت قلب انعام، حطمت قلبى مع قلبها.. وان العذاب الذى تعيش فيه انعام هذه الأيام، لا يقاس بالعذاب الذى عشت فيه طول عمرى..

لقد نشأت ـ كما تعرف ـ فى مدينة المنصورة.. وكان أبى شيخا وقورا يعمل إماماً لجامع هناك، ويعمل فى الوقت نفسه محاميا شرعيا.. وكانت أمى امرأة صغيرة السن. تصغر أبى بأكثر من عشرين عاما.. وكانت مدللة، عنيدة، طاغية الشخصية.. استطاعت أن تمحو شخصية أبى من جانبها ، فأصبح الرجل فى بيته ضعيفا، ذليلا، ليست له كلمة ولا رأى..

وكنا ثلاثة إخوة.. ولدان، وبنت جميلة رقيقة هزيلة.. وكانت أمى قد أطلقت علىّ أنا وأخى، أسماء بنات.. أسمتنى «تاتا» رغم أن اسمى المسجل فى شهادة الميلاد هو: توفيق.. وأسمت أخى «مديحة»، رغم أن اسمه: ممدوح.. وربما كان السبب فى تسميتنا بأسماء البنات هو منع الحسد عنا، كما كانت تعتقد بعض الأمهات، ولكنى أعتقد أن السبب الأول هو دلال أمى وميوعتها، وفرض عقليتها القاصرة علينا.. وقد ظلت أسماء البنات عالقة

بنا طول مدة اقامتنـا فى المنصورة.. وحتى بعد أن كبرت وأصبحت طالبا فى كليـة الحقوق.. تـرك اسـم «تـاتـا» فى نفسى شعورا دائما بـالنقص.. لقـد تعودت عليه.. لم أكن أغضب أو أثـور عندما ينادينى أحد أصـدقائى باسم «تـاتا» ولكن رنين اللفظ كـان يسقط فى صدرى، ويترك صـدى مؤلما كأنـه حد سكين يقطع فى لحمى..

ومنذ وعيت الحيـاة وأنا أرقب تصرفـات أمى، وأقارنها بتصرفـات بقية الأمهـات.. كـانت تتـزين زينـة فـاقعـة.. تلطخ وجههـا بكثير من الأبيض والأحمر والأسود.. وتقف فى شرفة البيت وهى فى ثوب فاقع اللون يكشف عن ذراعيهـا السمينتين، وصدرهـا المنفوخ، وسـاقيهـا المكتنزتين بـاللحم والشحم.. ثم تكثـر من الخروج من البيـت دون أن يعلم أحـد أين تـذهب، ودون أن يعترض أبى المسكين.. ولم أكن وأنـا فى هـذه السن، أستطيع أن أفسر هذه التصرفـات وأفهمها، ولكنى فقـط كنت أقارنها بتصرفـات أمهات أصـدقائى.. وأشعـر بـالضيق.. ثم لا استطيع شيئـا إلا أن أذهب وأجلس صامتا بجانب أبى، واستمع اليه وهو يتلو القرآن.

وكبرت.. وأصبحت شـابا.. وبـدأت أفهم تصرفات أمى.. وبـدأت التقط الهمسات التى تـدور حولها.. عـرفت أن أمى ليست امرأة فـاضلة .. ولكنى لم أستطع أن أفعل شيئا.. كـل ما كنت أفعله هـو أن أهرب من أصـدقائى، ومن الهمسـات، وأختفى فى الجامع الـذى يؤم أبى المصلين فيـه.. وأجلس على الأرض وأسند ظهرى الى الحائط.. وأشعر بالهدوء..

وكبرت أكثر.. وكل ما أفعله فى الحياة هـو أن أنجح فى كل امتحان بدرجة ممتـاز.. كنت أقبل على المذاكـرة بنهم.. كأنى أهـرب وأخفى نفسى بين صفحات الكتب والكراريس.. أهرب من صورة أمى، ومن تصرفاتها..

ثم أصيب أبى بالشلل.. رقد فى البيت جثة هـامدة لا يبدو عليها من آثار الحياة الا ترنم خافت بآيات القرآن..

وازدادت أمى فجورا..

كـانت تترك أبى المريض، وتخرج مـن البيت، ولا تعـود الا فى الليل.. وأحيانـا تغيب أياما وليـالى.. وأجلس أنا وأختى الهزيلة حـول فراش أبى.. أختى تناوله الدواء، وأنا أقرأ له فى القرآن..

ثم فوجئنا يوما بزيارة عمي الصغير.. انه أخ غير شقيق لأبي وهو يصغر أبي كثيرا.. شاب لا يتعدى الثلاثين من عمره.. أصغر من أمي أيضا.. ولم يكن من عادته أن يزورنا حتى في المناسبات التي تستدعي الزيارة.. كان دائما بعيدا عنا وعن بيتنا..

وعرفنا أنه جاء بناء على دعوة أمي..

وأصبح يجيء كل يوم.. ولم يعد يكلف نفسه أن يدخل الى غرفة أبي ليطل عليه.. بل كان يجلس مع أمي.. وأحيانا يجلسان في شرفة البيت.. حتى ساعة متأخرة من الليل.. الى أن ننام ـ أنا وإخوتي ـ أو نتظاهر بالنوم..

ثم أصبح عمي يجيء ومعه أصدقاؤه ويجلسون في الشرفة، يشربون البيرة، وأمي معهم، والأصباغ تلطخ وجهها، وثوبها الفاقع يكشف عن ذراعيها السمينتين.. وجثة أبي في الغرفة المجاورة لا تستطيع أن تتحرك، ولا أن تغضب.. فقط تتنفس آيات القرآن..

وأصبح الهمس الذي يدور في البلدة صراخا.. والأولاد يتجمعون تحت شرفة بيتنا ويقذفون أمي وضيوفها الذين يشربون البيرة، بالشتائم، وأحيانا بالطوب.. وأسمع أمي وأنا جالس بجانب جثة أبي، وهي ترد شتائمهم ، وتدلق عليهم الماء القذر .. وأقضي الليل وأنا أفكر في وقف هذه الفضائح التي تعيش في بيتنا .. لماذا لا أجبر أمي على أن تحترم نفسها وتحترم البيت.. لماذا لا أضربها.. لماذا لا أطرد هؤلاء الذين يشربون البيرة..

نعم سأفعل.. سأفعل.. ولكني ما أكاد ألتقي بوجه أمي في الصباح حتى تذوب أحلامي، وتذوب قواي وتذوب شخصيتي..

ووالدي أصبح عظاما.

وأختي تزداد هزالا..

وأخي «مديحة» انقطع عن المدرسة وتشرد..

ونلت التوجيهية، وهربت الى القاهرة لألتحق بالجامعة.. واعتقدت أني سأستريح.. سأنسى.. سأستعيد شخصيتي.. ولكن لا .. ان كل شيء

راقد فى نفسى.. وجه أمى ملطخ بالأصباغ، وذراعاها السمينتان.. وعمى الشاب.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة.. وجثة أبى.. وأختى الهزيلة.. وأخى «مديحة» وشخصيتى الضعيفة..

وكان علىّ أن أعود الى بيتنا فى الأجازة.. ووجدت الحال كما هو.. وازداد أصدقائى جرأة، فبدأوا يطلبون منى أن أضع حدا لمجون أمى وعهرها.. وكنت أقول لهم.. انتظروا الى أن أنال الليسانس، حتى لا تحرمنى أمى من المال.. وهى المسيطرة على كل ما نملك.. فلا أستطيع أن أتم تعليمى..

ولم يكن هذا صحيحا.. فلم يكن حرصى على الاستمرار فى العلم هو سبب سكوتى على تصرفات أمى.. ولكنه ضعفى.. وأنا اسمى «تاتا» وليس توفيق.. لو كان اسمى توفيق، فربما استطعت أن أوقف أمى عند حدها.. ولكن اسمى تاتا.. تاتا، أمام أمى.. وتاتا، أمام أصدقائى.. وتاتا، أمام نفسى..

ثم مات أبى..

ولم تنقض ثلاثة أيام على موته.. حتى باعت أمى البيت الذى نملكه فى المنصورة.. ثم دعتنى أنا وأخى وأختى، وأعطت لكل منا نصيبه فى ثمن البيت.. كان نصيبى ألفا وثمانمائة جنيه وكذلك أخى.. وأختى النصف..

ثم اختفت أمى.. هربت مع عمى ليقيما فى الاسكندرية.. وتركتنا وحدنا..

واختفى أخى فى عالم التشرد.. وأخذت أختى لتقيم معى فى القاهرة حتى أتم دراستى.. ولكن أختى ما لبثت أن مرضت بالسل.. وماتت.. وعشت وحيدا.. معذبا.. منطويا.. فى صدرى صور كالأشباح تملأه بالصراخ.. وجه أمى الملطخ بالأصباغ.. وذراعاها السمينتان.. وعمى.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة.. وجثة أبى التى تتنفس آيات القرآن.. وأختى الصفراء التى أكلها السل.. و.. تاتا..

ونلت الليسانس بدرجة ممتاز..

واستطعت أن أحصل على وظيفة فى النيابة..

ثم..

ثم قابلت انعام..

أحببتها.. وأحبتني .. لم يداخلني الشك فى حبها أبدا..

وكنت أعلم أنها فاضلة.. أفضل البنات.. وأكثرهن اتزانا..

كان فيها كل ما أريده.. وجهها الهادىء الذى لا تمسه الأصباغ وثيابها المحتشمة التى تغطى صدرها، وذراعيها.. وحديثها الرائق كقطرات الندى.. ولكن.. ولكنى كنت كلما نظرت إليها تذكرت أمى.. تذكرت الوجه الملطخ بالأصباغ، والذراع السمينة.. وعمى.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة.. وجثة أبى.. وتاتا..

ولم تكن تعرف أن اسمى فى المنصورة هو «تاتا».. كانت تناديني دائما بتوفيق.. ولكنها كلما همت أن تفتح شفتيها لتناديني، خيل إلى أنها ستنادى «تاتا».. لا أدرى لماذا.. ولكن هذا ما كان يحدث لى .. وقد حاولت أن أقاومه.. حاولت أن أنسى أمى وكل ما أحاط بحياتى.. وحاولت أن أثبت لنفسى أنى أقوى شخصية من أنعام.. فكنت أفتعل معارضتى لآرائها وتصرفاتها.. ولكنها كانت تنتصر على دائما دون تعمد.. لأن آراءها وتصرفاتها كانت دائما صحيحة ، ولكنى كنت أحس أنها انتصرت على لأن شخصيتها أقوى من شخصيتى.. كما كانت شخصية أمى أقوى من شخصية أبى..

وحاولت أكثر من ذلك..

خطبتها..

خطبتها لأتغلب على احساسى بالنقص.. لأزداد ارتباطا بها.. لأسد فى وجهى طريق التردد والخوف..

ولكن، لا أمل..

انى لا أزال أرى فيها وجه أمى.. وأرى فى نفسى شخصية أبى..

ثم لم أعد استطيع..

فسخت الخطبة..

وأنا أعلم أنه ليس ذنب أنعام، فلو كانت أية فتاة أخرى لفسخت خطبتها.. ولكنه ليس ذنبى أيضا..

أرجوك..

لا تغضب منى..



المجنونة



عزيزى احسان :

هل الله رجل؟

أستغفر الله ان كان فى سؤالى كفر.. فانى احبه.. أحب الله.. انه سندى، وكل أملى.. لم يعد لى سند، ولا أمل غيره..

ورغم ذلك فانى لا أستطيع أن أكف عن التساؤل: هل الله رجل؟

انى اكتب اليك من بعيد..

• بلادى كانت صحراء.. ذهبها رمال وخيرها فى شهامة أهلها وزهدهم وايمانهم.. ليس فيها من زهور الا بناتها.. وليس فيها ما يدلك على الطريق الا القمر والنجوم.. وليس فيها ما يبدد وحشتها سوى همسات الحب..

وفجأة أفاض الله على بلادى بخير جديد..

خير أسود.. اسمه البترول!

واختص الله بهذا الخير، الرجال وحدهم.. وترك البنات يعشن فى صحراء.. بلا بترول!

الرجال وحدهم هم الذين تغير حالهم.. الذهب يجرى فى أيديهم.. ذهب ليس فى لون رمال الصحراء.. انه فى لون الويسكى، وفى لون شعور الشقراوات من البنات الأجنبيات، وفى لون الوجوه المنهوكة التى أنهكها الافراط.. ونحن.. نحن البنات. بقينا على حالنا.. تغير الثوب البدوى الذى نرتديه وأصبح ثوبا من طراز «الشوال»، و«الترابيز»، و«البرنسيس» وعرفنا «الجيبون» و«السوتيان»، و«الجيبسور» و.. ما عدا هذا لم يتغير منا شىء.. اننا لا زلنا نعيش خلف الحجاب.. وخلف الجدران.. ولا زالت تقاليد الصحراء تحكمنا.. ولا زال الأب والأخ وابن العم، يقيمون حولنا قضبانا من الحديد.. من أنانية الرجل، وقسوته، وبدائيته..

وقد كانت هذه التقاليد محتملة يوم كانت تحكم الرجال والنساء على السواء.. لقد كنا وسط هذه التقاليد ـ رغم كل ما فيها من أنانية وبدائية ـ

نعرف طريقنا الى الرجل، وكان الرجل يعرف طريقه الينا.. كنا كلنا فى سجن واحد.. ولكن الرجل صنع من البترول مفتاحا للسجن، وخرج منه وحده، وتركنا فيه، وأغلق الباب وراءه، واحتفظ بالمفتاح فى جيبه.. أصبحنا نحن وحدنا فى السجن، والرجل طليقا حرا.. فلم نعد نعرف طريقنا اليه، ولم يعد يعرف طريقه الينا..

وأنا لم أولد وكل هذه الخواطر فى رأسى.. لا.. لم أكن أشعر بثقل التقاليد.. ولم أكن أشعر بأنى فى حاجة الى المطالبة بحق.. كانت حياتى كلها حبا..

أحببت ابن عمى..

وربما أحببته يوم ولدت.. وربما قبل أن أولد.. ولكنى وجدته بجانبى عندما فتحت عينى على الحياة.. بجانبى وأنا لا زلت رضيعة.. بجانبى ونحن نلعب سويا فى ساحة الدار.. بجانبى وأنا فى العاشرة من عمرى وقد بدأت أنوثتى تنطلق فى اعطافى..

وفى هذا العمر أصبح حبى حقيقة وأملا مرتقبا.. اننى سأتزوجه.. لم يحدثنى أحد عن الزواج.. ففى بلادنا لا يتحدث البنات عن الزواج، ولا يحدثهن أحد عنه، كأنه خطيئة لا يتداول سيرتها إلا الشياطين.. ولكنى اعتبرت نفسى زوجة له وعشت هادئة.. أهدأ من عمرى.. فى انتظار اليوم الموعود.. لم أكن ألعب لعب البنات، ولا أهتم بما يهتم به البنات، كان فى قلبى سعادة غامرة.. تغنينى عن اللعب وعن الصديقات.. وكنت كلما جاء ابن عمى الينا، والتقيت بعينيه، أحسست بدمائى تزغرد فى عروقى.. أحسست كأنى أزف اليه.. ولم يكن بيننا أبدا أكثر من هذا اللقاء.. لقاء عينى بعينيه، ولمسة يدى ليده وهو يصافحنى..

وكنت أعرف نصيبى من الحياة بعد الزواج.. انه نصيب لا يزيد عن نصيب أمى.. سأبقى فى البيت انتظره مهما طال انتظاره.. ولن آخذ منه الا هذه اللحظات التى يتفضل بها علىّ، وربما شممت من فمه رائحة الخمر التى تفوح من فم أبى.. وكنت راضية بهذا النصيب، لم أطمع أبدا فى أكثر منه، لم يخطر لى أن أثور على التقاليد، أو أنتقدها.. ولم أكن أحس بهذا

السجن الكبير الذى يضمنى وكل بنات بلدى.. كنت سعيدة، هادئة، هادئة دائما..

وأسمونى فى البيت، العاقلة!

الى أن كان يوم..

وتقرر أن يسافر ابن العم الى خارج بلادى ليتلقى العلم.. هكذا قالوا، ليتلقى العلم!

وانقبض قلبى، وتوجست خيفة.. أحسست بدمائى تهرب منى، وقضيت أياما مذهولة، لا أستطيع أن أنظر فى قلبى، حتى لا أفجع.. لا أستطيع أن أحادث نفسى، حتى لا تهزمنى نفسى..

وجاء يودعنا، ووقف قبالتى، وعيناه فى عينى، ويده فى يدى.. وتجرأت وقلت، وأنفاسى تتهدج:

— لعلك لا تسلونا يا ابن العم..

وأجاب وصوته القوى يسرى كالنغم فى أعصابى:

— متى استطاع الانسان أن يسلو دمه..

وسافر..

وبقيت فى انتظاره عامين، لا يصلنى منه الا ما يقوله فى خطاباته لأهله.. وتحيات يرسلها باسمى.. وكان يكفينى منه هذا.. يكفينى أن أعلم أنه يكتب اسمى بيده..

وعاد..

عاد وفى يده زوجة أجنبية.. بيضاء، شقراء، مكشوفة الصدر، والذراعين، مصبوغة الوجه.. لا يبدو عليها أثر من آثار السجن الذى تعيش فيه، كل شىء فيها منطلق جرىء.. نظراتها، وابتساماتها، وكلماتها!

ووقفت واجمة، كأنى أصبت بسهم الله، وابن عمى وزوجته واقفان أمامى.. ولم أكن أنظر اليه، كنت أنظر اليها، أبحلق فيها!

وحاول من حولى أن يخرجونى عن ذهولى.. أن يجعلونى أتكلم.. وصرخ فى ابن العم حتى لا تضيق زوجته بنظراتى.. ولم أتحرك، ظللت هكذا دقائق، ساعات، لست أدرى.. ثم جريت من أمامها.. وهرعت الى مرآتى،

أنظر فيها الى وجهي الأسمر وشعري الأسود.. ثم أمسكت بقطعة من الليف الخشن، وأخذت أحك بها جلد وجهي في قسوة.. بكل قواي لعلني أستطيع أن أصبح بيضاء.. مثلها!

ولكن، كل ما حدث أن انبثقت الدماء من بشرتي..

وانهرت باكية..

وعرفوا اني أحبه.. احب ابن العم، وحاولوا أكثر أن يخفوا خبر حبي عن أبي، حتى لا تقع المصيبة الكبرى!

كم بكيت، أياما ، شهورا.. لست أدري، أيضا. ولكني كنت أفيق من بكائي، فأرى الدنيا تهتز من أمامي، وطنين يملأ رأسي، وأشباح سود تحيط بي.. وأفكار عجيبة جريئة تتراءى لي!

واستطعت أن أشتري من السوق - بواسطة جاريتي - أنواعا من الأصباغ. وأخذت أقف أمام المرآة وأصبغ شفتي بالأحمر.. وأضع البودرة على وجهي، وأمزق ثوبي عن صدري، وعن ذراعي، لأبدو مثلها.. مثل المرأة التي أعجبت ابن عمي. فتزوجها!

وأسموني في البيت : المجنونة !

وأصبح كل همهم أن يخفوا جنوني، حتى لا يعرفه أهل بلدي!

وبعد شهور زوجوني.. ولم أكن أستطيع الرفض.. لأن أحدا لم يسألني، حتى أوافق أو أرفض.. زوجوني في الخامسة عشرة من عمري، رجلا في الخمسين من عمره، تزوج قبلي مرتين.. وسكت متظاهرة بالهدوء الى أن كانت ليلة زفافي.. وما كاد الرجل يقترب مني حتى صرخت.. صرخت بأعلى صوتي، وظللت أصرخ حتى فتحوا علينا الباب.. وصفعتني أمي.. وصفعتني أختي.. وصفعني الرجل العجوز الذي زوجوني له.. ولكني ظللت أصرخ، وأصرخ.. ثم أقوم وسط الحجرة وأرقص.. ثم أغني.. ثم أصرخ .. ثم أبكي!

ولم أكف عن البكاء والصراخ، الا عندما آمن الرجل اني مجنونة!

وحملوني الى بلد قريب، وأدخلوني في مستشفى لمرضى الأمراض العصبية.. مستشفى المجانين!

ولم أكن مجنونة!

كل ما حاولته هو الهرب من قدري!

وكل ما بقي من مظاهر جنوني هو أني لا أكف عن التساؤل:

هل الله رجل؟

ان كل بنات بلدى يسألن نفس السؤال..

فهل هن أيضا مجنونات؟!



السكرتيرة والزوجة



أنا سكرتيرة الأستاذ عصام عبدالرحمن !

وكلكم تعرفون الأستاذ عصام.. تقرأون له مقالاته وقصصه، وتسلمون له عقولكم وقلوبكم ليقودها بقلمه!

ولكنكم لا تعرفونني!

وأؤكد لكم أنكم لن تعرفوا الأستاذ عصام الا اذا عرفتموني!

لقد التقيت به لأول مرة منذ خمس سنوات، عندما ذهبت اليه فى مكتبه بدار الجريدة، ومعى خطاب توصية من أحد أصدقائه، لأشغل وظيفة سكرتيرة خاصة له.. وكنت أتخيله كما يتخيله كل قرائه.. كهلا فى الخمسين على الأقل.. جادا وقورا.. خبيثا.. مغرورا.. ولكنى وجدته انسانا آخر.. شابا قد يزيد عمره عن الخامسة والثلاثين، ولكنه يبدو فى الثلاثين.. بسيطا الى حد السذاجة.. متواضعا بلا تكلف كأنه لا يعرف نفسه!

ودخلت اليه بلا مقدمات.. قلت للساعى الواقف فى الصالة الخارجية:

— الأستاذ عصام من فضلك!

فأشار بيده الى أحد الأبواب، وقال دون أن يتحرك من مقعده:

— تفضلى..

وطرقت الباب طرقات خفيفة ولم يرد أحد.. وطرقته طرقات أشد فلم يرد أحد أيضا، ففتحت الباب ودخلت ووجدته جالسا وراء مكتبه يكتب.. وظللت واقفة أمامه بضع دقائق وهو لا ينتبه الى .. ثم اضطررت أن أنبهه قائلة:

— تسمح يا أستاذ..

ورفع رأسه وما كاد يلمحنى حتى ابتسم ابتسامة كبيرة، لم تستطع أن تمسح خطوط الانهاك من فوق جبينه، والنظرات الشاردة فى عينيه!

وقدمت اليه الخطاب، وقلت فى أدب:

— أنا بعتنى الأستاذ عمر، علشان..

وقاطعني فرحا:

— انتي السكرتيرة ؟

قلت :

— بإذن الله !

قال وهو يقوم واقفا ليصافحني :

— أنــا قلت لهم يحطــوا لك مكتب في الأودة اللى جنبي.. وانشــاء الله حنقدر نتعاون سوا!

قلت في دهشة :

— أنا خلاص اتعينت؟!

قال وهو لا يحاول أن يقرأ الخطاب الذى قدمته اليه:

— انتي مش عايزة تبقى سكرتيرة؟ خلاص !!

قلت وأنا أبتسم في وجهه كأنني ابتسم في وجه طفل:

— بس لازم أعرف اختصاصاتي .. أعرف سيادتك محتاج لى في ايه!

واختفت الابتســامــة من على شفتيــه، ومرت على وجهــه ســحــابــة من الحيرة.. وعــاد يجلس وراء مكتبــه، ثم أشــار لى بيــده لأجلس على المقعــد المقابل.. وقال في صوت كسول كأنه يحلم:

— أنا الحقيقة ما اعرفش اختصاصات السكرتيرة تبقى ايه.. أنا عمري مــا كــان عنــدي سكــرتيرة.. وعمــري مــا فكــرت يبقى لى سكــرتيرة.. إنما أصحــابي كل مــا يشــوفــوني تعبــان في شغلي ، يصممــوا عليّ أن أجيب سكــرتيرة.. ومتهيأ لى أن شغلة السكــرتيرة، زى شغلة ست البيت. مــراتي بتنظم لى حيــاتي في البيت، والسكــرتيرة تنظــم لى حيــاتي في الشغل.. وأنــا عمري ما أعرف أنظم حاجة.. أنــا أقدر أكتب لك كتاب في تنظيم الدولة.. انما أعجــز عن اني أنظم درج مكتبــي، أو أنظم وقتي.. أنــا شغلي كلــه ملخبط، أوراقي ملخبطة.. وكتبي ملخبطــة.. ومواعيدي ملخبطــة.. ومتهيألى اني لو نظمت الحاجــات دى كلهــا حــاأقــدر انتج اكتر. واستريح أكتر.. ومش بس كــدة.. متهيألى ان اختصــاص السكــرتيرة، انها تبقى حتة من عقلي.. تــدخل جــوه عقلي وتنظمه.. عقلي زى الــراديــو فيه محطــات كتير.. فيه سياســة

واجتماع ومقالات وقصص ومحاضرات.. ومفتاح الراديو ده لازم يكون فى ايد أمينة فاهمة.. تدوره زى ما هى عايزة.. تدوره على المحاضرات يقول محاضرات!

وسكت الأستاذ عصام برهة، ثم استطرد:

— متهيألى انى بأقول كلام خيال.. زى ما أكون باحلم!

قلت :

— ابدا .. سيادتك فاهم شغلة السكرتيرة كويس!

وابتسم ابتسامة صغيرة، ثم فتح درج مكتبه، وأخرج حزمة من المفاتيح، ناولها لى، قائلا:

— دى كلها المفاتيح اللى حيلتى.. مفاتيح مكتبى، ومفاتيح الدواليب اللى فى الأوده دى، والأوده اللى جنبها.. دواليب مليانة أوراق ودوسيهات ومراجع.. ولازم كلها حاجات مهمة بدليل انى احتفظت بيها.. انما ما اقدرش أقول لك هى ايه، لانى ناسى أنا شايل ايه ورميت ايه.. ولما باعوز حاجة من الدواليب دى باقعد جمعة وجمعتين أدور عليها ويمكن مالقيهاش!

وقمت لأخرج وأنا مذهولة من الثقة التى وضعها فى دون أن يعرفنى.. انه لم يسألنى شيئا، لم يسألنى حتى عن اسمى.. والتفت اليه قبل أن أخرج من الباب، وقلت له:

— أنا اسمى خديجة!

ولكنه كان قد عاد وأمسك بقلمه وبدأ يكتب.. فلم يسمعنى!

وابتسمت وخرجت !

وهكذا بدأ عملى مع الأستاذ عصام عبد الرحمن..

وقد وجدت فى الدواليب كنوزا مهملة.. قصصا رائعة كتبها عصام، واحتفظ بها ليعدها للنشر ثم نسيها.. وعقودا لم تسدد قيمتها، ملقاة وسط وثائق سياسية، و..و..و.. وقضيت شهرين وأنا أنظم هذه الكنوز فى مجموعات متناسقة مرقمة.. ثم بدأت أفهم عمل الأستاذ عصام.. وأفهم عقليته.. وتصرفاته.. وأدرس أعصابه.. وبدأت أتدخل فى كل شىء.. كل

شيء.. حتى انى كنت أعد أعقاب السجائر التى يتركها فى المنفضة بعد أن يخرج، لأعرف كم سيجارة دخنها.. وأذوق القهوة التى يشربها حتى أتأكد من أن عامل البوفيه لا يغش البن.. وكنت أطوف بالمكتبات قبل عودتى للبيت، لأشترى له الكتب الحديثة وكنت أفاوض ناشرى قصصه.. واستطعت أن أرفع ما يدفعونه له الى ثلاثة أضعاف.. وكنت أنا التى أقبض له نقوده.. وأنا التى أضعها له فى جيبه.. وفى الوقت نفسه جعلت من مكتبه قطعة من الجنة.. قطعة مشرقة.. منيرة.. أزينها كل يوم بوردة حمراء!

ولم أكن أستطيع تنظيم الأستاذ عصام، الا اذا نظمت علاقته بكل من يشتغلون معه فى الدار.. سواء من المحررين أو السعاة.. وحاول هؤلاء أن يتمردوا على، وأن يتحدوا سلطاتى.. ولكنى استطعت أن أخضعهم وأطوى ثورتهم.. فلم يعد واحد منهم يستطيع أن يتصل بالأستاذ الا عن طريقى.. ولم يعد الأستاذ يبتسم لواحد منهم الا اذا ابتسمت له أنا أولاً..

كل ذلك والأستاذ مستسلم لى كالطفل الذى وجد أمه.. أصبح لا يرى الا بعينى.. ولا يسمع الا بأذنى.. وهو سعيد.. انه يرى انتاجه يزداد.. ودخله يزداد.. ويومه يتسع.. وعقله المرتبك يصفو.. ونفسيته الحائرة تستقر..

وبدأ الذين يشتغلون فى دار الجريدة يحاربوننى بالإشاعات.. أشاعوا أن بينى وبين الأستاذ علاقة حب، وأنه يتردد كل مساء على الشقة الصغيرة التى أقيم فيها وحدى، والتى تطل على ميدان سليمان باشا.. ولم تكن هذه الاشاعة صحيحة.. أقسم لكم أنى فى خلال ثلاث سنوات قضيتها فى وظيفة السكرتيرة لم يكن بينى وبين الأستاذ شيء.. ورغم ذلك فلم يكن عصام مجرد رجل اشتغل عنده.. كان أكثر من ذلك بكثير.. كنت أحس كأنه ابنى.. أكثر من ابنى.. انه شيء أملكه.. أملك عقله.. وأملك وقته.. شيء أصنعه بيدى.. وأنتم لا تدرون كم كنت أبذل فى صنعه.. لقد كنت أذهب الى المكتب فى الساعة الثامنة صباحا، لأعد له أوراقه، وأعد له برنامج يومه.. ثم أخرج فى الساعة الثانية مساء لأتناول غدائى، وأنا أفكر فيما ينقصه، وفيما سأعده له فى المساء.. ثم أعود الى المكتب ملهوفة كأنى غبت عنه أياما.. وكأن عصام قد فقد منى.. وأظل حتى التاسعة مساء ثم أضطر أن أعود الى

بيتى، وأتركه فى المكتب ليكتب.. ولا أنام.. بل أظل ساهرة بجانب التليفون، لعله يحتاج لشيء فيطلبني.. وأقضي الوقت أقرأ الصحف الفرنسية والانجليزية وألخصها له لأعرضها عليه فى اليوم التالى، حتى أقدر أن عصام قد انتهى من عمله وعاد الى بيته.. فأنام.. لأصحو ملهوفة عليه..

وقد كنت أغار عليه.. هذا صحيح.. ولكنها لم تكن غيرة كغيرة البنات.. نوع آخر من الغيرة.. كنت أغار على كل شيء أملكه.. وأخاف أن يأخذ احد منه شيئا.. أن يسرقه أحد مني.. أن يهدم جزءا مما أبنيه.. كنت أغار عليه غيرتي على عملى..

وعصام متزوج كما تعلمون..

وقد رأتني زوجته لأول مرة بعد أن استلمت عملى بثلاثة أشهر.. ولا شك أنها اطمأنت الىّ عندما رأتني.. فأنا لست جميلة.. لست أجمل منها ولا فى مستوى جمالها.. ربما كان قوامي أرشق من قوامها، ولكنى لست جميلة الوجه، ولا يبدو علىّ أني من صنف البنات اللاتى يصطدن الرجال.. كل ما يبدو علىّ أني فتاة جادة.. فتاة عمل..

ولكن على مر الأيام بدأت الزوجة تحس بنفوذى وسلطاتي داخل دائرة عمل زوجها.. وربما أحست باستسلام زوجها لى.. حتى أنها أصبحت تأخذ مصروف البيت عن طريقي.. واذا سألت عن شيء.. عن أى شيء قال لها: «اسألى خديجة».. اذا سألته:

— نقدر نروح سينما الليلة؟

أجاب ببساطة وسلامة نية:

— أما أسأل خديجة .. أشوف ورايا ايه!

وبدأت الزوجة تغار.. وبدأت تحاول أن تشعرنى دائما بأني سكرتيرة.. مجرد سكرتيرة.. ولا يمكن أن أكون أكثر من سكرتيرة.. كانت تتصل بى فى التليفون، وتقول لى من طرف أنفها:

— من فضلك وانتي جاية، فوتي على شيكوريل هاتي الفستان بتاعي من عنده!

وكنت ألبى أوامرها.. ولكنها تمادت.. وأحسست أنها تتعمد اهانتي

وتحقيرى. فلم أعـد أؤدى لها شيئـا.. انـى سكـرتيرة زوجهـا، ولست سكـرتيرتها..واختصاصـاتى هى عمل زوجها، لا احضـار ثيابها من عنـد شيكوريل..

وبدأت معركة صامتة بينى وبينها..

كانت تأتى الى المكتب.. وتنقل الزهرية من مكانها الى مكان آخر.. وتنقل هـذا المقعد.. وهـذه المنفضة.. وتلقـى أوامر الى السعـاة..و..و.. وأنا أكـاد أجن.. انى لا أتدخل فى شئـون بيتها، فلماذا تتدخل فى شئـون بيتى.. وهذا المكتب هو بيتى.. بيتـى أنا.. ليس لى بيت آخر أنـا سيدتـه.. وقد ضحيت فى سبيل هذا البيت.. بل رفضت أن أتـزوج.. وأرفض أن أتزوج.. فى سبيل هذا البيت.

وصبرت على الزوجة!

ثم جـاءت يومـا الى المكتب.. وحـاولت أن تدخل الى زوجهـا فقلت لها فى أدب:

— عنده اجتماع..

وكان فعلا مشغـولا باجتماع هام مع شخصية سيـاسية كبيرة. ولكنها صرخت فى وجهى كأنها تصفعنى:

— انتى اتجننتى.. ازاى تمنعينى ادخل لجوزى.. انتى فاكرانى موظفة زيك.. انتى زودتيها قوى.. لازم تعرفى حدودك!

وسكت!

وفتحت الباب ودخلت..

ومن يومها أصبحت الحرب بينى وبينها سافرة!

من يـومهـا أصرت على أن يطـردنى عصـام مـن العمل.. وجمعت كل الاشـاعـات الكـاذبـة التى أشيعت عنى وعنـه وأشهـرتها فى وجهـه.. انت بتحبها.. انت بتخونى معاها.. الصرصارة.. الوحشة!

وبدأ عصام يتعذب!

وبدأ عذابـه يربك تفكيره.. وروحه.. وعمله.. وعجـزت ان أسيطر عليه.. عجزت أن أدير مفتاح الراديو.. كما كنت أديره!

وكنت أعرف أنه يعانى أزمة الخيار بينى وبين زوجته.. إما أن يطردنى.. أو يطلقها. وكان أضعف من أن يختار.. كان أطيب قلبا من أن يضحى بزوجته التى عاش معها أكثر من عشر سنوات.. وأضعف من أن يستغنى عنى، وهو يعلم مدى حاجته الىّ!

وكنت أتمنى أن يطلقها.. ما جدواها فى حياته.. ما جدوى أى زوجة فى حياة فنان مثل عصام.. انها فقط مظهر.. انها ثوب يرتديه استكمالا للشكل.. انها لا تعينه فى عمله، ولا فى حياته.. بالعكس انها عبء عليه.. انها عذاب يسرى فى أعصابه.. وأنا التى يحتاج اليها.. أنا التى تدير مفتاح الراديو ليملأ آذان العالم فنا ومجدا.. انه يرانى أكثر مما يراها.. وأتعب من أجله أكثر مما تتعب.. هذه المدللة التافهة!

الى أن كان يوم!

ودخلت الزوجة علىّ كالزوبعة، وصرخت فى وجهى:

— اسمعي، انتى لازم تخرجي من هنا حالا، دلوقت، اذا كان عصام مش قادر يقول لك انك لازم تنطردى، أدينى باأقولك.. كفاية.. خسرت سمعته.. وهدمت بيته.. امشى اطلعى برة!

ورفعت رأسى، ونظرت اليها باحتقار، وقلت:

— لو كنت عارفة ان الاستاذ عصام مش عايزنى، ما كنتش استنيت لغاية ما يطردنى.. وأحب أقولك انه محتاج لى أكثر منك.. انتى صحيح مراته.. انما ما تعرفيش انه أطيب من أنه يخونك!

وعادت تصرخ :

— امشى اطلعى برة.. اطلعى برة.. انتى مرفوتة.. مرفوتة!

وتجمع المحررون عند الباب يشاهدون الخناقة بين الزوجة والسكرتيرة، وقلوبهم ترف بالشماتة!

وخرج عصام من مكتبه، ووقف بين زوجته وسكرتيرته ذاهلا !

ونظرت اليه بكل عينى!

ولأول مرة أعرف أنى أحبه.. أحبه ضعيفا كما هو.. ذاهلا كما هو.. فنانا كما هو.. أحبه أكثر مما تحبه زوجته.. وألف امرأة مثل زوجته.. ولأنى أحبه أكثر منها.. كان يجب أن أضحى به!

تركته !

وعدت الى بيتي أبكي.. أبكي كل ما بنيته.. أبكي الانسان الذى صنعته بيدى.. وانقضت أيام طويلة.. وأنا وحدى.. أفكر فيه.. وأتبعه بخيالى.. ترى هل كتب المقال.. هل أعد مسودات الكتاب.. هل حضر الاجتماع.. هل قبض الشيك.. هل عاد عامل البوفيه يقدم له قهوة مصنوعة من بن مغشوش.. و..

ومضى أكثر من عشرين يوماً!

وكنت جالسة فى بيتى وحدى.. والساعة الحادية عشرة مساء، عندما دق جرس الباب!

وارتديت «الروب دى شامبر» فوق قميص النوم، وفتحت..

انه عصام!

مذهولا.. ممتقعا.. شارد العينين..

ودخل صامتا دون أن أدعوه الى الدخول، وأخذ يطوف بأرجاء الغرفة فى خطوات تائهة.. لا يتكلم..وأنا أنظر اليه، وقلبى يخفق!

ورفع رأسه، وقال كأنه يبكي:

— أنا مش قادر يا خديجة.. مش قادر استغنى عنك.. مش عارف أشتغل.. مش عارف أعيش.. مش عارف أكتب.. حياتى ارتبكت أكتر من الأول!

واقتربت منه، ووضعت أطراف أصابعى على كتفه، وقلت وكلماتي ترتعش:

— أنا لسه معاك.. حافضل طول عمرى معاك..

ونظر إلىّ طويلا .. ثم فجأة جذبنى اليه.. وضمنى الى صدره بقوة.. وأخفى وجهه فى عنقى وهو يقول:

— ماتسيبينيش يا خديجة ما تسيبينيش..

●●●

لقد رفضت الزوجة أن أكون سكرتيرة لزوجها..

فأصبحت عشيقة له..

أرجوكم .. لا تلومونى.. ولا تلوموه..

هكذا أرادت .. الزوجة..



القطة



لا ادرى، هل تبدو قصتى غريبة مثيرة، أم انها قصة عادية.. قصة عشرات البنات غيرى؟؟ انها فى نظرى تبدو قصة عجيبة.. وانظر الى نفسى كأنى فريدة بين البنات.. فريدة بما أحمله فى صدرى من عذاب، وفريدة بما يدور فى رأسى من أفكار..

لقد كان ابى يعمل فراشا فى احدى الشركات.. أو «ساعى» فقد كان يكره أن يقول عن نفسه انه فراش، بل كان يكره ايضا ان يقال عنه انه «ساعى».. كان لقبه المفضل، موظف فى شركة الغزل والنسيج..

وكانت أمى تعمل خادمة عند شريفة هانم.. كانت أكبر قليلا من مجرد خادمة.. أو كانت خادمة من نوع خاص..

وكنت أنا واحدة من سبعة اخوة واخوات.. كان فوقى ولدان وبنتان.. وتحتى ولد وبنت.. وكنت اجمل البنات، وأذكاهن.. سمراء، لا اكف عن اللعب والضحك.. وكنت اذهب مع أمى كثيرا الى بيت شريفة هانم. وكانت شريفة هانم تدللنى كثيرا.. كانت تعطينى الشيكولاتة، وقطع الحلوى، وأحيانا ثوبا قديما من ثيابها.. ولم يكن لشريفة هانم أولاد.. توفى زوجها دون ان تنجب، وكانت تعيش فى قصرها وحيدة.. تلعب الكوتشينة وتقيم الحفلات..

ومع الأيام ازداد تعلق شريفة هانم بى.. لقد كنت اسليها.. وأثير فيها حنانها المكبوت.. فاتفقت مع أبى وأمى على أن تأخذنى!

نعم.. تأخذنى!

وتنازل عنى أبى وأمى بسهولة.. ربما اعتقدا يومها انهما يبيعانى الى النعيم.. وقد كان قصر شريفة هانم نعيما بالنسبة لبيتنا..

وانتقلت الى القصر الكبير، وأصبحت سلوة شريفة هانم الوحيدة.. تضعنى بجانبها طوال اليوم.. وأنام بجانبها فى سريرها طول الليل.. ولا تكف عن تدليلى، ومسح وجهى وشعرى بيديها.. وكانت تناديني

دائما.. قطتي.. تعالى يا قطة.. روحي يا قطة.. خدى شيكولاتة يا قطة!

وفرحت بانتقالى الى القصر الكبير.. الى النعيم.. أحسست كأنى ملكت الدنيا.. وكنت انادى شريفة هانم.. ستى.. ولكنها طلبت منى ان أناديها.. طنط.. ثم بعد شهور، وبعد ان ازدادت تعلقا بى طلبت منى أن أناديها.. ماما..

وليس معنى هذا انها تبنتنى تبنيا قانونيا.. انها لم تتخذ أى اجراء قانونى.. ولا زلت لا استحق شيئا فى إرثها.. ولا يزال اسمى فى شهادة الميلاد: زينب عبد الله عبد الفتاح.. بنت عبدالله عبدالفتاح.. ساعى بشركة الغزل!

وكان شعورى نحو شريفة هانم غامضا فى مبدأ الأمر.. كانت فرحتى بالنعيم تلهينى عن فهم شعورى نحوها.. ولكنى مع الأيام بدأت أضيق بتدليلها لى.. وبدأت أنفاسى تتمزق كلما قبلتنى أو ضمتنى.. وبدأت أحس كلما نمت بجانبها، برغبة فى الفرار.. حتى لو نمت على الرصيف.. ولكنى لم أكن استطيع ان افصح عن شعورى.. كنت اكتمه، واحس انى أدفع ثمن النعيم الذى أعيش.. ثم أخيرا عرفت أنى لا أحب شريفة هانم.. بل لا أحس بفضل لها علىّ ولكنى فقط محتاجة اليها.. وهى أيضا محتاجة إلىّ !..

ثم تنبهت الى لقب «قطة» التى تدللنى به.. إنى فعلا قطة.. وهى تدللنى كما تدلل قطتها.. وتشترى لى الثياب والحلى.. كأنها تعلق فى رقبة قطتها شريطا من الحرير .. وجلجلة من الذهب.. وإذا كان يقال عن القطة إنها «تعرف المكان ولا تعرف السكان» بمعنى انها لا تحب صاحبها ولكنها تحب المكان الذى تأكل فيه.. فكذلك أنا.. أنا لا أحب شريفة.. ولكنى أحب النعيم الذى أقيم فيه!

وأصبحت أكره القطط.. أصبحت أجن وأصرخ كلما رأيت قطة..

وانا كنت لم أحب شريفة هانم.. فقد فقدت أيضا حبى لأمى.. لقد كانت تأتى الى البيت لتخدم فيه، كما كانت دائما.. ووجدت نفسى حائرة.. هل اعتبرها أمى، أم اعتبرها خادمة.. ولم أكن استطيع أن اعتبرها أمى.. ولم أكن استطيع ان اعتبرها مجرد خادمة.. فأصبحت أضيق برؤيتها.. واتشاجر معها كلما التقينا.. حتى اضطرت شريفة هانم أن تمنعها من

التردد على البيت! دون ان تحرمها مـن أجرها.. ولم تعترض أمى، مـا دامت تقبض أجرها.. وأصبحت لا أراها إلا فى فترات متباعدة.. وللحظات قصيرة..

وأخذت أعيش حياة شريفة هانم.. حياة المجتمع الذى تنتمى إليه شريفة هـانم.. وساعدنى ذكائى.. وسـاعـدتنى شريفة هـانم.. التحقت بمدرسـة الميردديبيه. وأجدت الفرنسية والانجليزيـة وكنت فى الخامسـة عشرة من عمرى أصنع ثيابى عند مدام افلاطون، وأذهب الى الكوافير مـرتين فى الأسبوع، وتأتى عاملة المانيكير الىّ لتقلم أظافرى.. وكنت أرشق بنـات المجتمع.. وأجملهن.. وأخفهن دمـا.. وأذكـاهن.. إنى لم أكن استطيع شيئـا بغير ذكائى.. ان الرشاقة، والجمال، والنجاح فى المجتمع، كـان الفضل فيه لذكائى قبل ان يكون لأموال شريفة هانم..

واستقبلنى المجتمع مبهورا..

كنت أدير الرؤوس فى كل مكان أدخلـه.. وربما لاحظت بعض الهمسات التى تدور حولى.. ولكن لا يهم. ما دام معى ذكائى وجمالى..

وأصبحت فى السادسة عشرة

وبدأت أبحث عن الرجل الذى أتـزوجه.. وكان من حقى ان يكون لى زوج يستطيع ان يكفل لى حياة كـالتى أعيشها فى القصر الكبير.. لم أكن استطيع ان اتزوج كما تـزوج إخوتى البنـات.. مستحيل.. انهن لسن اخوتـى.. لقد ابتعدت عنهن كثيرا .

وبدأت أنتقى الشـاب الذى أريده.. ولم يكن هذا صعبـا فكل أولاد الطبقة الراقيـة يجرون ورائى.. ويضعـون تحت قـدمى شبـابهم وثـرواتهم.. والأصل العريق!

واخترت واحدا منهم..

أنه يحبنى.. يحبنى جـدا.. انـه يبكى بـالـدمع أمـامى.. ولكن.. ولكنـه لا يستطيع أن يتزوجنى.. امه لا تريد.. وأبوه لا يريد وهو لا يستطيع.

وتركته واخترت واحداً ثانياً ..

إنه يحبنى.. يحبنى جدا.. انه يبكى بالدمع أمامى.. وقد منحته أكثر قليلا مما منحت الأول.. حتى أملكه أكثر.. ولكن.. انه لا يستطيع أن يتزوجنى..

والثالث.. و..

وتنبهت الى الحقيقة المرة.. ان المجتمع لا يريد أن ينسى أنى ابنة عبدالله عبدالفتاح الفراش، وابنة نعيمة الخادمة.. المجتمع لا يريد ان يعترف بأنى ابنة شريفة هانم.. المجتمع كله كشريفة هانم لا يعتبرنى أكثر من قطة.. قطة شريفة هانم.. قطة تنتقل بين الموائد، وتموء، ويربت الناس على ظهرها..

وتملكنى احساس جارف بالعناد..

يجب ان اتزوج..واتزوج واحدا من أبناء هذه الطبقة.. ولكن.. الشاب الرابع أيضا طار.. والخامس.. وكلهم يحبوننى.. ويتذللون الى.. ويهبوننى ما أريد من أموالهم ويصحبوننى فى سياراتهم.. ولكنهم لا يتزوجوننى.

وشريفة هانم تعرف مأساتى.. لقد شكوت اليها فى لحظة ضعف.. وكل ما فعلته ان هونت على.. انتى لسة صغيرة يا قطة مستعجلة على الجواز ليه يا قطة..

ربما كانت لا تريد ان تزوجنى حتى أظل بجانبها.. قطتها..

وتملكنى حقد عنيف ..

حقد على المجتمع كله.

وعندما حقدت انصب حقدى على شريفة هانم..

أصبحت أعاملها بقسوة.. وأتلذذ بجرح احساسها.. كنت أنشب أظافرى فى كبريائها وفى شيخوختها وأمزقها.. وهى تثور حيناً، ثم تهدأ.. وتسكت، وتحتملنى .. لا أدرى لماذا ؟

وتقدم إلى ضابط شاب ليخطبنى .. إنه من أصدقاء زوج أختى ، ومرتبه أربعة وعشرون جنيها .. وأحسست أنى أهنت .. كأن الدنيا مدت يدها وصفعتنى.. انى لا زلت ابنة أبى الفراش وأمى الخادمة.. ولا زلت أختا لأخواتى.. ولا استحق إلا زوجا مرتبه أربعة وعشرون جنيها..

ورفضته..

ورفضته وأنا أصرخ فى وجه أمى وأختى..

إنى لن أتزوج إلا واحداً من طبقتى.. طبقة القصر الكبير.. ولكن شبان هذه الطبقة لا يتزوجوننى.. انهم فقط يشتهوننى.. وازددت حقدا عليهم.. وأصبح الحقد انتقاما.. أصبحت أدمر كل من يقترب منى.. استطعت أن أتسبب فى طلاق اثنين.. وأن أفسخ خطوبة ثلاثة.. وان أمتص ثروة واحد

منهم الى أن ارسله أبوه الى أوروبا ليبعده عني.. وكل ذلك وانا ضنينة بنفسي عليهم.. لم يستطع شاب أن يلمس جسدي.. لا إيمانا مني بالفضيلة.. ولكني كنت أقتلهم بالحرمان، وأعذبهم بشهوتهم!

ومرضت شريفة هانم..

أصيبت بالشلل، وأصبحت لا تقوى على الحركة.. لا شيء يتحرك فيها إلا عينيها ولسانها.. وجلست بجانبها أبحلق فيها.. لم أشعر بالشفقة عليها.. لم يتحرك قلبي لوعة عليها.. انما كنت أفكر.. إنها ستموت، وستتركني بلا شيء.. انى لن ارثها.. لن ارث شيئا من هذا النعيم.. وفجأة.. وبكل جرأة.. قمت وفتحت دولابها وأخذت مصاغها، وكل ما وجدته من نقود.. فعلت ذلك امامها.. وهي تنظر الىّ في فزع، ولا تستطيع ان تتحرك.. وقالت ولسانها الثقيل لا يكاد يحمل كلماتها :

— ليه بس يا بنتي..

وقلت وأنا أمد يدي وأجمع المجوهرات في جشع، كالقطة التي تسرق قطعة اللحم من طبق صاحبها:

— أنا مش بنتك.. لو كنت بنتك ما كنتش عملت كده.. أظن فاكره انك تموتي وتسيبيني أشحت.

وقالت والفزع يملأ وجهها، ولسانها يزداد ثقلا:

— أنا .. أنا !

ثم سكتت!

شل لسانها.. شل نصفها الآخر..

وأخذت المجوهرات والنقود واخفيتها عند أمي.. وعدت إلى القصر.. أدخل الى شريفة هانم، فتنظر إلىّ في فزع، ويتحرك لسانها بهذير غير مفهوم، وأنظر اليها في قسوة كأني لخنقها بعيني.. ثم أتركها للممرضة، ولا أريها وجهي حتى الصباح التالي.

وماتت..

ربما عجلت بموتها فعلا..

وفتحوا وصيتها..

لقد أوصت لي بالقصر.. وبمجوهراتها.. وبأموالها في البنك ..

أوصت لي بثلث ثروتها..
وأفقت..
أفقت من حقدي..
لقد كانت تحبني.. إني لم أكن مجرد قطة.. إن الناس لا يوصون للقطط بثلث ثرواتهم.. ولم أكن أدري!
وبكيت، لعلها المرة الأولى التي أبكي فيها..
وذاع خبر الوصية.. وتقدم إلي ثلاثة شبان من شبان المجتمع الراقي ليتزوجوني.. ورفضتهم.. إني أعرف لماذا يريدون الآن الزواج.. إني لا زلت في نظرهم ابنة نعيمة الخادمة.. لا ابنة شريفة هانم.. ولكني ثرية!
وبعت القصر الكبير.. واستأجرت بيتا آخر.. كبيرا أيضا.. عشت فيه مع أمي وأبي.. وأختي الصغرى وزوجها..
ورفضت الزواج..
بلغت الثلاثين من عمري، ولم أتزوج!
ثم أخيرا .. تزوجت.. أتدرون من ؟ الضابط الذي تقدم لخطبتي وأنا في التاسعة عشرة.. إن مرتبه الآن خمسة وخمسون جنيها!!



سوق القنافيت



أنا لاجيء فلسطيني..

وعندما تـرن فى أذنك كلمة «لاجيء » تثور فى نفسك معانى الجهاد، والكرامة المجروحة، والنضـال فى سبيل استرداد الوطن العـربى.. ولكنك تنسـى معـانـى الجوع، والفقـر، والتشرد.. ربما لأنـك، أنت والجالسين خلـف مكـاتبهم، لم تعـرفوا الجوع، ولا الفقـر، ولا التشرد.. فأنتم معذورون!

وقد وصلت إلى معسكر اللاجئين وأنا فى الثانية من عمرى.. أنا وإخوتى التسعة الصغار.. ملتفين حـول أمنا الباكية.. تبكى زوجـا قتل، وما لنا خرب وضاع..

وعشت سنـوات عمرى، مع آلاف غيرى مـن اللاجئين.. عشت فى خيمة صغيرة ممزقة، تضمنا جميعا.. ونتـدفأ فى الشتاء بأجساد بعضنا البعض.. ونقضى الأيام لا نفعل شيئـا، إلا أن نضيع فى الفراغ.. وننتظر المشرفين على اغاثتنا.. وزوارا من مختلف البلدان يأتون الينا وينظرون.. كأنهم ينظرون الى نوع غـريب من الحيوانات داخل اقفاص.. وتـرتفع فى عيونهم الحسرة.. ويمصمصون شفـاههم.. ويقولون كلمـة تبعث فينا الأمل.. ثم يـذهبون.. وينسون!

وكانـوا يحسنون علينـا بأربع بطاطين.. كل ثلاثـة منا بطـانية.. ولكل واحد منا كمية من الدقيق والسكر والفول، تساوى ١٥٠٠ سعر حرارى!

هل تعرف ما هو السعر الحرارى؟

لا.. إنك لا تعرف.. لأنك عندما تأكل لا يهمك أن تعرف كم سعر حرارى تأكلـه.. ولكننـا نعلم.. ونعلم أن الشخص العـادى يحتـاج فى المتوسط إلى ٣٠٠٠ سعر حرارى، كحد أدنى للحياة!!

وكنا نأخذ دقيق القمح الذى يصرف لنا.. ونستبدله عند التـاجر بدقيق

أذرة.. حتى يكفينـا.. وعنـدنا تجار تخصصـوا في هـذه التجـارة.. وتعيش تجارتهم على جوعنا..

ولكن دقيق الأذرة أيضـا لم يكن يكفينـا.. فكنـا نستبـدل الـدقيق.. بالفتافيت..

إنك لا تعرف ما هي الفتافيت ؟

انها قطعـة الخبـز الصغيرةالتي تتسـاقط من على مـائدتك، ويلقي بها خادمك في صفيحة الزبالة.

وعنـدنـا داخل المعسكـر، سـوق كـامل اسمـه «سـوق الفتـافيت».. لا تندهش.. ان اسمه فعـلا، «سوق الفتافيت».. تعرض فيه بقـايا الأرغفة.. أنصاف الرغيف، وأرباع الرغيف، ولقم من الرغيف.. لمن يشتري ولمن يبيع..

واللاجئـون لا يتعاملون بـالنقد.. ليس عندنـا نقود.. من أين نأتي بها، ونحن نعيش بلا عمل ، عـالة على كرم المحسنين.. فكنت عندمـا احتاج لقلم اكتب به في المدرسة، تعطيني أمي ربع رغيف، اذهب بـه إلى سوق الفتافيت، واستبدله هناك بقلم رصاص..

وقد ذهبت إلى مدرسة المعسكر.. كل الأولاد عنـدنا يذهبون إلى المدرسة، لا إجبـارا، ولا لأن التعليم عنـدنا إلـزامي، ولكن لأن ليس هنـاك شيء آخر نفعله سوى ان نذهب الى المدرسة.. ولأن العلم غذاء مجاني.. وقد تعودنا أن نأخـذ كل شيء مجانـا.. صدقة لله.. وأخيرا.. لأن العلـم كان هـو السـلاح الوحيد الذي يسمح لنا بحمله!!

وكانت مـدرستنا من نوع خـاص يليق بنا.. مدرسـة في العراء.. نجلس فيهـا على قطع من الحجـارة.. ويجلس المدرس أمـامنا على قطعـة حجـارة اخـرى.. ولم تكن لنـا سبـورة يكتب عليها المدرس بـالطبـاشير.. بل كـان المدرس يكتب على الأرض .. على مساحة من أسفلت الشارع!!

هذه كانت مدرستنا.

وقد بقيت فيها حتى نلت الشهادة التوجيهية..

وكثير من شباب اللاجئين عندما ينالون شهادة التـوجيهية، ينتظرون مـوسم الحج.. ويجمع لهم أهاليهم بعض النقـود، وقد تكـون لدى أمـه أو

أخته، قطعة حلى تبيعها من أجله.. ثم يسافر الى المملكة السعودية بحجة أداء فريضة الحج.. وهو يضطر حتى تبدو حجته صادقة ان يقضى عاما على الأقل وهو يدعى التدين، ويصلى الفروض الخمسة ويصوم رمضان.. فإذا استطاع بعد ذلك أن يسافر إلى السعودية.. كان أول ما يفعله أن يطوف على أبواب الرزق باحثا عن عمل.. إن الله لا يرضى لعبده أن يطوف حول الكعبة وهو جائع مشرد، مجهول المصير.. إنما الطواف الحلال.. الطواف الذى شرعه الله لعبيده.. هو الطواف على أبواب الرزق..

فإذا وجد اللاجىء منا عملا.. أى عمل .. هدأ ، واستراح، واستقر.. وأرسل من كسبه إلى أهله وبنى قومه الراقدين فى معسكر اللاجئين، يرد جميلهم عليه..

وقد كنت فى انتظار موسم الحج لأهاجر إلى السعودية.. أو أى وطن عربى آخر استطيع أن أصل إليه.. ولكن الله أغنانى، وفتح لى باب الرزق فى داخل معسكر اللاجئين.. بين قومى..

عينت مدرسا، بعد أن كبرت المدرسة وأصبح لها بناء..

وأصبح مرتبى سبعة عشر جنيها فى الشهر..

إنها أول مرة ألمس فيها بيدى نقودا أملكها.. كانت كل النقود أراها من بعيد .. لا ألمسها.. وليس لى نصيب فيها..

وفرحت،

وزغردت أمى..

وهلل إخوتى التسعة..

ولكن ما لبثت فرحتى أن اختنقت.. ضاعت كما ضاع وطنى.. فقد علمت ان اللوائح.. لوائح المحسنين.. تنص على أن تحرم العائلة من الاعانة، إذا كان عائلها يكسب خمسة عشر جنيها فى الشهر..

وأنا كبير عائلتى!

ومرتبى سبعة عشر جنيها فى الشهر!

وضاعت الاعانة. ضاعت الـ ١٥٠٠ سعر حرارى التى كان يعيش عليها كل منا!

ماذا أفعل؟

إن سبعة عشر جنيها فى الشهر، لا تكفى لحياة أحد عشر شخصا.. أمى وأنا وإخوتى التسعة.. حتى ولو كنا نعيش فى معسكر اللاجئين.

إننا سنموت من الجوع، والبرد!

وفكرت..

ولم يكن هناك إلا حل واحد، وهو ان ادعى أنى تخليت عن عائلتى، وكونت عائلة أخرى.. وأترك إخوتى وأمى يمرحون فى كرم المحسنين.

ومعنى هذا، ان أتزوج..

ولكنى لا أريد الزواج!

أريد أن أبقى مع أمى وإخوتى أرعاهم، وأعطيهم كل قرش من مرتبى الصغير..

ولم يكن هناك طريق آخر، فقررت أن أتزوج.. زواجا صوريا.. مجرد إجراء شكلى.. لارضاء اللوائح!

وكانت فى المعسكر امرأة عجوز مجنونة.. تدور طول النهار بين الخيام تهذى بكلام غير مفهوم.. فتقدمت اليها أطلب يدها.. أى والله.. هذا ما فعلته.. وإذا بالمرأة المجنونة تفيق من جنونها بغتة.. و.. وتطالبنى بالمهر.. وإذا بأخ يظهر لها.. ويدخل معى فى مفاوضات لا تنتهى.. وكان أخاً واعيا.. لم يفاوضنى على أساس أنى أريد أن أتزوج بأخته المجنونة العجوز.. بل فاوضنى وهو يعلم حيلتى.. ويعلم قيمة الاعانة التى ستحرم منها عائلتى..

وحسبت الحسبة، وقبلت أن أدفع مهرا..

دفعت عشرة جنيهات.. على قسطين..

وتزوجت..

ورددت إلى إخوتى وأمى الـ ١٥٠٠ سعر حرارى.. وتركت زوجتى تهيم بين الخيام، وتهذى بكلام غير مفهوم.. لم تكن زوجتى، بمعنى الزواج، ولو لدقيقة واحدة.

واطمأنت حياتى..

وأصبحت من ثراة المعسكر..

ثم فجأة.. وقبل أن تنقضي ثلاثة أشهر.. ماتت المجنونة.. ماتت زوجتي .. وضاع المهر الذي دفعته.. وتكلفت مصاريف الدفن.. ثم .. صدر قرار المحسنين بحرمان عائلتي من الاعانة..

أتدري؟

إنني أذهب كل غروب إلى قبر زوجتي ..

وأبكي..



شفتاه



هل تريد أن تعرف قصتى معه؟!؟!

لقد رأيته أول مرة على شاطىء البحر بالاسكندرية.. كنت فى السابعة عشرة من عمرى، وكان فى الخامسة والثلاثين من عمره.. كبيرا، قويا، طويلا، لفحته الشمس فبدا جسده كأنه مصنوع من النحاس.. وزحفت فوقه بعينى حتى التقيت بوجهه.. رزينا.. عيناه حادتان.. وشفتاه مقوستان كأنهما قوس مشدود ليطلق ابتسامة.. وتعلقت عيناى بهاتين الشفتين!

وفى اليوم التالى رأيته أيضا.. وقضيت ساعات أمسح فوقه بعينى ثم استقر بهما فوق شفتيه!

وفى اليوم الثالث رأيته يحادث فتاة.. وشعرت بالغيرة.. وكنت أعلم أن ليس من حقى أن أغار عليه.. إنه لا يعرفنى.. إنه حتى لم يرنى.. لم يلتفت إلىّ رغم أن ليس بينى وبينه سوى خطوات..

وقمت أسير أمامه لعلى أشغله عن الفتاة التى يحادثها.. ولكنه لم يشغل عنها.. ولم يلتفت إلىّ .. وعدت إلى جلستى أنظر إلى شفتيه وهما تتحدثان إلى فتاة غيرى!!

ومرت الأيام.. وليس لى منه نصيب إلا النظر.. وشفتاه تطاردانني فى نهارى وليلى، فى صحوى ونومى!

وتجرأت..

أصبحت أتعمد أن أمر أمامه.. وتصيبنى رعشة فيخيل الىّ أن جسدى كله يتأرجح فوق ركبتى وأنا أمشى.. فأخجل من نفسى..

وتجرأت أكثر..

أصبحت ابتسم له.. ابتسامة صغيرة خجولة، هى كل ما استطاعت جرأتى أن تعيننى عليه..

ولكنه لم يلتفت الىّ .

لم يرنى..

إنه أحيانا مشغول فى حديث مع أصدقائه.. وأحيانا يلعب الراكت.. وأحيانا يلعب الطاولة.. وأحيانا يحادث هذه الفتاة الأخرى..

وعيناى متعلقتان بشفتيه..

ولم أكن استطيع أن أفعل شيئا أكثر من ذلك.. إنى خجولة وأنا محافظة.. وكنت أعلم أن البنات لهن طرق كثيرة فى الوصول إلى الشبان.. ولكنى لم أكن استطيع أن ألجأ إلى هذه الطرق.. إنها فوق طاقتى.. بل إنى لم استطع حتى أن أحدث صديقتى عن اعجابى به، لعلها تعيننى على الوصول إليه..

إنى فقط أنظر إليه من بعيد، وأمر أمامه أحيانا لعله يلتفت إلىّ ويساعدنى.. ولكن .. لا شىء.. لا شىء يحدث أكثر من النظر إليه.. والتعلق بشفتيه!

وبدأ شعور غريب ينتابنى..

إنى أريد أن أقبل هاتين الشفتين..

أريد أن أقبلهما..

وخجلت من هذا الشعور.. أحسست بنفسى كأنى أصبحت فتاة خاطئة.. ولكن الرغبة تزداد تملكا منى.. فأدفن شفتى بين طيات الوسادة.. وأقبله..

وذهب فى الصباح إلى الشاطىء وبحثت عنه بعينى فلم أجده.. وانتظرته فلم يحضر..

وأحسست كأنه هجرنى..

أحسست كأن الشاطىء كله فراغ ممل..

ولم يحضر فى اليوم التالى..

لقد عاد إلى القاهرة..

تركنى وأنا لا أعرف إلا اسمه الأول الذى سمعت اصدقاءه ينادونه به.. عادل..

انقضى الصيف وأنا ساهمة.. وشفتاه مرسومتان فوق وسادتى.. ثم

رجعت إلى القاهرة.. وفرحت برجوعي، كأني سألقاه ينتظرني على المحطة. كأني على موعد معه..

وأصبحت أسير في شوارع القاهرة وأنا ألتفت إلى كل سيارة تمر لعلّي أجده فيها.. وأنظر حولي كأن عيني ستقعان عليه.. على شفتيه.. وأصبحت أفتح دفتر التليفون وأراجع كل الأسماء التي تبدأ باسم عادل.. ثم أختار واحدا منهم.. لعله هو.. وأهم أن أتصل به.. ثم أعدل.. رباط من العقل يشدني..

وشفتاه.. إني لا أستطيع أن أتخلص من شفتيه..

و.. رأيته.. لمحته في شارع سليمان باشا يقود سيارته الصغيرة.. ووقفت مشدوهة، وقلبي يخفق.. يخفق بشدة.. يكاد يفر من بين ضلوعي.. وعدت إلى البيت.. ساهمة واجمة.. سعيدة.. كأني عدت من لقاء غرام..

ودفنت شفتي في وسادتي..

ثم عاد الصيف..

وعدت إلى الشاطيء انتظره..

انه لم يأت بعد..

ومضت أيام طويلة ولم يأت.. ثم جاء.. وفرحت.. خفق قلبي.. وغمرتني سعادة ونشوة.. وأخذت امسح فوق جسده بعيني، وازحف بهما حتى أصل إلى شفتيه.. لا تزال الابتسامة بينهما.. ولكنه يبدو أكبر من العام الماضي.. شعرات بيض خفيفة في فوديه، وخطوط فوق جبينه.. ولكني لا زلت لا أستطيع أن أرفع عيني عنه..

وقمت أسير أمامه.. ولكنه مشغول.. يحادث أصدقاءه.. أو يلعب الراكت.. أو الطاولة.. أف.. لماذا لا ينظر إليّ.. إني جميلة.. إني سأعجبه.. يجب أن ينظر، ويساعدني.. يساعدني في الوصول إليه..

ولكنه مشغول..

مشغول عني..

وبكيت.. وأخفيت دموعي.. وعدت أنظر اليه..

وبقي يوم آخر على شاطيء البحر، ثم لختفي.. تركني.. وشفتاه

لا تفارقان وسادتي.. ولكنه عاد.. عاد يوم الخميس.. وعرفت أنه قرر ألا يقضي على الشاطيء أكثر من يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع.. وأصبحت انتظر كل يوم خميس كأني على موعد معه.. كنت أذهب إلى الحلاق في الصباح، وأرتدى أحب فساتيني، وأذهب الى الشاطيء.. إليه وأقبل شفتيه.. قبلات كثيرة.. أقبلهما بعيني.. وأهمس.. وحشتني.. وحشتني موت.. ولا شيء أكثر..

وانتهى الصيف، وكل ما أخذته منه هو اسمه الكامل.. عادل رؤوف .. موظف بالسلك السياسي..

وعدت الى القاهرة، وأمل كبير يضج في صدري.. إني على الأقل استطيع أن أحدثه في التليفون..

ومضى أكثر من شهر وأنا أحاول ان استجمع شجاعتي لأحدثه في التليفون..

صدقني.. إني لست كبقية البنات..

ثم أخيرا حادثته..

وسمعت صوته..

لابد أن هذا هو صوته.. إن قلبي لا يخطيء

وقلت وصوتي يرتعش:

— أنا واحدة..

وقال وهو يضحك ضحكة كسولة:

— صحيح!!

وضحكت معه.. خيل إلىّ أني بين ذراعيه.. واضحك..

ووجدت نفسي أحادثه.. لم أكن أظن أني استطيع أن أقول كل هذا الكلام.. رغم انه لا يعرفني!

وقلت له في حياء :

— اقدر اكلمك في التليفون تاني..

قال وأنا أرى شفتيه يطلقان ابتسامتهما :

— تقدري.. بس لازم تكلميني في لندن..

وشهقت:
— أنت مسافر؟!
قال فى هدوء:
— الطيارة حاتقوم بعد ساعتين..
قلت فى لهفة:
— وراجع إمتى..
قال وهو يضحك ضحكة صغيرة كأنه يسخر من القدر:
— بعد خمس سنين..
ووقعت سماعة التليفون من يدى كأنما أغمى عليها..
هل نسيته..
لا..

إنه حبى الأول والوحيد، فكيف انساه.. وشفتاه مرتسمتان فوق وسادتى وصوته يملأ أذنى..

وتزوجت وأنا فى التاسعة عشرة..

وذهبت لزوجى، وخيالى مع حبيبى حتى فى حفلة زفاف وأنا جالسة فى الكوشة، والعوالم يقرعن الدفوف من حولى، كنت أرى حبيبى فى خيالى.. وأرى شفتيه.. وأغمض عينى لأقنع نفسى أنى أزف إليه..

وعندما قبلنى زوجى لأول مرة أغمضت عينى لأتخيل أنها قبلة حبيبى.. لا إنها ليست قبلة حبيبى.. وأدفن رأسى فى الوسادة أبحث عن شفتيه.. ثم .. إنى لا أطيق ان يقبلنى زوجى إلا إذا أطفأ النور..

وأصبحت أعد الشهور والسنين.. مر عام.. والثانى.. والثالث.. والرابع.. والخامس.. لا بد أنه عاد.. لقد قال إنه سيعود بعد خمس سنوات..

هل اتصل به فى التليفون.

لا.. لا.. مستحيل.. إنى امرأة متزوجة.. ويكفينى أنى أثمت فى حق زوجى بخيالى، ولن آثم فى حقه أكثر..

وصدقنى.. إنى من هذا النوع من النساء.. النوع الذى يطلق خياله، وتقيده الحقيقة..

وأصبحت أسير فى شوارع القاهرة وأنا أنظر إلى السيارات لعلى اصطدم به.. ثم أسافر الى الاسكندرية وأجلس فى نفس المكان من الشاطىء.. لعله يأتى..

ولكنه لم يأت..

وهو فى خيالى.. وشفتاه فوق وسادتى.. وصوته يملأ أذنى..

ومرت إحدى عشرة سنة..

ورأيته..

رأيته فى السينما.. كان يجلس فى بنوار.. كبيرا، قويا، طويلا، وشفتاه مقوستان.. كأنهما قوس مشدود ليطلق ابتسامة..

إنه حبيبى..

وحبيبى الآن فى السادسة والأربعين من عمره.. شعره أبيض.. ولكنه لا يزال حبيبى..

وتعلقت عيناى بشفتيه، وانطلقت منى ابتسامة تسعى اليه.. وهمست.. الحمد لله على السلامة..

ثم وجدت نفسى أميل على زوجى، وأتعلق فى ذراعه، كأنى احتمى به من خيالى..

ثم.. عدت أزحف اليه بعينى..

ان معه فى البنوار سيدة.. وصديقا.. هل هذه السيدة زوجته أم زوجة صديقه..

واعتبرتها زوجته.. لا أدرى لماذا.. واحسست بالغيرة.. غيرة مرة قاسية.. كأنه خاننى بزواجه.. كأنه خدعنى .. كأنه..

إنى مجنونة..

ولكنى أعيش فى هذا الجنون.. وهو جنون لا يبدو على وجهى ولا على تصرفاتى.. ولكنى لا شك مجنونة.. مجنونة ان أحب هذا الحب.

ولكنى لا استطيع ان اتخلص من جنونى..

لا أريد أن اتخلص من جنونى..

لا أريد أن اتخلص منه..

إنى أعيش به..

ومضت خمسة أعوام..

ومات زوجى؟

وبكيت عليه.. بكيت عليه كثيرا.. ولكن خيالى كان لا يتخلى عنى اثناء بكائى.. إنى الآن حرة.. إنى استطيع أن اتصل بحبيبى.. وكان خيالى هذا يراودنى.. وأنا فى ليالى المأتم، فأخجل من نفسى.. واشتد فى بكائى.. كأنى استسمح زوجى.. وانقضت أيام البكاء..

ومضت شهور طويلة وأنا أروح وأغدو أمام التليفون.. ثم تجرأت ورفعت السماعة.. وطلبت رقم حبيبى..

— البيه موجود؟!

ورد الخادم كأنه يستنكر السؤال:

— البيه فى باريس..

وشهقت..

ثم ترددت وأنا أسأل فى خجل:

— والهانم..

وقال الخادم وهو أشد عجبا:

— ما فيش هانم هنا.. البيه مالوش هانم!

وفرحت..

أحسست أنه لا يزال مخلصا لى..

وعشت مخلصة له.. رفضت ان أتزوج.

ومر عامان.. عامان ليس لى فيهما إلا خيالى.. وشفتاه فوق وسادتى، وصوته يملأ أذنى، وشعره الأبيض يطوف حولى كأجنحة الملائكة..

وكنت فى زيارة إحدى صديقاتى فى مستشفى الدكتور الكاتب.. وسمعت من الحاضرات أن عادل رؤوف يقيم فى الغرفة المجاورة وأنه أجرى عملية جراحية..

ولا أدرى ماذا حدث لى..

قمت فجأة، واتجهت إلى غرفة عادل ودخلت إليه..

كـان وحده.. راقـدا فى سريـره.. مغمض العينين.. ولم يحس بدخـولى.. وقفت بجانب فراشة مشدوهـة أنظر إليه كأنى أشرب من وجهه.. ثم تعلقت عيناى بشفتيه.. ثم فجأة .. انحنيت وألقيت شفتىّ فوق شفتيه.. وقبلته..

بعد هذا العمر الطويل..

ولا أريد أن أرفع شفتى عن شفتيه..

وفتح عينيه فى هدوء وإعياء، ونظر إلىّ فى تساؤل مريح، وشفتاه تطلقان على ابتسامته الحلوة..

وامتلأت بالخجل، وأرخيت عينى عنه وقلت هامسة، فى سذاجة :

ـــ أنا فايزة ؟!

ولم يردد ..

ووقفت مـرتبكة.. ثم استدرت لأنصرف.. ولكنه أمسك بيدى، وشدنى إليه ، وقال:

ـــ أنا حاسس إننا نعرف بعض..

ثم اتسعت عيناه، وشب بقامته فى فراشه، وقال فى فرح :

ـــ مؤكد إننا نعرف بعض..

وسقطت جالسة على حـافة فراشه.. وأنـا أتنهد .. وقلبى يخفق .. يدق.. يكاد يفر من بين ضلوعى..

لقد وصلت إليه..

ورويت له قصتى فى حديث لم ينته .. ولن ينتهى..

لقد تزوجنا..

ولعلك الآن لا تلومنى لأنى تزوجت رجلا عجوزا..



العفاريت



أنا دكتور في الذرة، وعضو في المجلس الأعلى للعلوم، وأستاذ في الجامعة.. وأحمل لقب : عالم .. وأنا واحد من اثنين في الشرق الأوسط، تعترف المعاهد العلمية في أمريكا وروسيا بالبحوث التي يضعانها..

ورغم ذلك فهناك سؤال بسيط يتردد على لسان كل طفل، ولا استطيع أن أجد له جوابا في خزانة العلم والمعرفة التي أحملها في رأسي.

السؤال هو: هل توجد عفاريت ؟

وقد حاولت كثيرا أن أجيب على هذا السؤال.. قضيت عمري وأنا أحاول، الاجابة عليه. ودرست علوم الفلك، وعلوم الروح، وعلوم الميتافيزيكا وما وراء الطبيعة، لعلي استطيع أن أجيب على السؤال المحير، بل ربما كان الدافع الأول لتخصصي في علوم الذرة هو الاجابة على هذا السؤال..

ورغم ذلك فإنني لم أعثر على الجواب ..

وكل من يسألني : هل توجد عفاريت ؟ لا أرد عليه، ولا اناقش، لأني أخشى أن يكشف النقاش عن حيرتي ، فأكتفي بأن أهز كتفي، وأقول بلا مبالاة : بلاش كلام فاضي.. عفاريت إيه.. ما تسأل في حاجة مهمة يا أخي..

وهذا الكلام الفاضي، هو المشكلة التي صاحبتني طول حياتي..

مشكلة بدأت عندما زرت قريتنا لآخر مرة ، وأنا صبي في الثامنة من عمري..

إنها قرية صغيرة، اسمها « كفر ممونة » ناحية شبرا اليمن، مركز زفتى.. وكان جد والدي هو آخر جيل في العائلة أقام في القرية.. ثم أرسل ابنه — أي جدي — ليتعلم في الأزهر، فأقام في القاهرة وتزوج فيها.. ولكن صلته بالقرية كانت لا تزال قائمة، فهو يزور أهلها كل شهر تقريبا، وأهلها يفدون إلى بيتنا في القاهرة ويقيمون فيه ريثما يتمون الطواف على أضرحة أولياء الله.. ثم في عهد والدي بدأت الخيوط التي تصلنا بالقرية تبلى

وتتمزق.. ولكنا كنا لا نزال نذكرها فى أحاديثنا.. وكانت تأتينا منها صفائح السمن، والبيض، والفطير المشلتت، والبنات اللاتى يخدمن فى البيت.. وفى عهدى أنا.. عندما كبرت وأصبحت رجلا.. انقطعت صلتنا بالقرية تماما، ولم يعد بينى وبينها إلا إيجار ثلاثة أفدنة ونصف، هى كل ما نملكه من أرضها، ويأتى الشيخ عبدالصمد ليسلمنى قيمة الايجار مرتين فى العام، وغالبا لا أجد من وقتى متسعا لمقابلته، فيقابله سكرتيرى نيابة عنى!

ورغم أن آخر مرة زرت فيها قريتنا ، كنت فى الثامنة من عمرى ـ أى منذ ثلاثين عاما ــ فإنى لا زلت أذكر هذه الزيارة.. ولازلت كلما تذكرت قريتنا، أحس بشيء يشد قلبى كأن عروقى كلما تمتد إلى هناك، وتنبت من هناك.. وأحس فى الوقت نفسه بحزن عميق وحسرة كأنى تذكرت والدتى التى ماتت، وتركتنى وحيدا.. ضائعا..

وكلما تذكرت قريتنا تذكرت العفاريت..

لقد ذهبت إلى هناك مع ابن عمتى الذى يكبرنى بعشر سنوات.. وكنت صبيا منطويا ضعيفا يجرعوننى كل صباح ملعقة كبيرة من زيت السمك.. وكان ابن عمتى فتى قويا نشيطا، وكان رئيس فرقة الكشافة فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية، وكان فى حزامه دائما خنجر صغير..

وكنت معجبا بابن عمتى.. كنت اعتبره بطلا، وأسير دائما وراءه، وأحاول أن أقلده.. وكنت أنظر إلى رداء فريق الكشافة الذى يرتديه، والمنديل الأخضر الذى يلفه حول عنقه، والصفارة التى يضعها فى جيبه ويلف حبلها الأبيض المجدول حول كتفه، والشراريب الحمراء التى تتدلى من أعلى جوربه.. كنت أنظر إليه كما أنظر الآن إلى القنبلة الذرية.. كنت أعتقد أن ابن عمتى يستطيع بهذا الخنجر أن يقتل عشرات اللصوص، وأن يذبح الأسود، وأن يطرد الانجليز من مصر..

وكنا ـ فى القرية ــ نجتمع كل مساء فى فناء الدار.. سيدات العائلة والبنات والأطفال والشبان.. ونتحدث.. والحديث دائما ينتهى الى ذكر العفاريت.. الجنية الحسناء التى تظهر فوق مياه النيل فى الليالى المقمرة، وتأخذ فى تسريح شعرها، وتغنى بصوت لا تستطيع أذنى رجل أن تقاومه،

حتى إذا نسي الرجل نفسه وحاول أن يقترب منها، شدته معها إلى قاع النيل.. وتزوجته..

ولكن معظم الحديث كان يدور حول عفريت معين يقيم في القرية ويتخذ محله المختار بجوار المقابر، ولا يزاول نشاطه إلا في الليل.. فإذا ما مر به طفل حمله من ساقيه وفسخه إلى نصفين.. وإذا مر به رجل ركب فوق أكتافه وأمره أن يظل يجري به إلى نهاية الليل. وكانت أم إبراهيم كبيرة عجائز العائلة تروي قصصا عجيبة عن هذا العفريت.. وتقسم أنه ركب مرة فوق كتفي الشيخ عوضين .. وإنه قتل ابن بهية الدسوقي منذ خمس سنوات.. وإن حميده العلاف رأى العفريت في الأسبوع الماضي عندما كان عائدا من شبرا اليمن، وإنه ظل يجري، ويقرأ آية الكرسي، والعفريت يجري وراءه، إلى أن وصل إلى القرية ودخل البيت وأغلق الباب عليه.. ولولا آية الكرسي لاستطاع العفريت أن يلحق به ويركب فوق أكتافه.. وتقسم أم إبراهيم أن شيخ الخفر سليمان قدم منذ ثلاثين عاما طلبا إلى المأمور لاعفائه وإعفاء جميع الخفراء من حراسة المنطقة التي تقع حول المقابر، لأن العفريت كان يقضي الليل متنقلا فوق أكتافهم.. وإن المأمور رفض أيامها طلب سليمان، وعزله من شياخة الخفر.. وعين محمد السنوسي بدلا عنه، ولكن محمد السنوسي ما لبث أن استقال بعد أن ركبه العفريت.. فما كان من المأمور إلا أن أرسل قوة من عساكر المديرية على رأسها ضابط.. فإذا بالعفريت يركب الضابط ويظل يجري به حتى آخر الليل.. وفر العساكر.. وحملوا الضابط في الصباح إلى مستشفى المجانين. ومن يومها تقرر أن تترك منطقة المقابر بلا حراسة..

وكنت استمع إلى هذا الكلام وارتعد، وانكمش في نفسي حتى أحس أني لن استطيع أن أفرد بعدها أطرافي.. كنت أخاف.. ويلازمني الخوف طول الليل.. فانزل من سريري الذي أنام فيه أنا وطفلين من أبناء العائلة، وأجري لأنام بجوار ابن عمتي.. فقد كنت أعلم أنه يحتفظ بخنجره تحت الوسادة التي ينام عليها..

وكان ابن عمتي يستمع إلى هذه الأحاديث، ويسخر منها، ويسخر من

أم إبـراهيم.. ويقول لهـا ضاحكـا « يـا حاجـة بلاش تخريف.. ده كـلام فاضي »!

وتـرد أم ابـراهيم قـائلة : « يـابنى استغفـر الله .. ده الجن مـذكـور ف القرآن ».

وأنا خائف :. أصدق أم ابـراهيم وأصدق القرآن.. ولا استطيع أن أكذب ابن عمتي.. البطل الذى أؤمن به وأسير وراءه..

وفى إحدى الليالى، وكنت نـائما تراودنى الأحـلام المفزعـة التى تتبعنى كلما سمعت حـديـث العفـاريت.. أحسست بيد تهزنى بقـوة، فصحـوت مفزوعا وصرخـة هائلة محتبسة فى حلقي.. ورأيت أمامي ابن عمتي مـرتديا زى الكشافـة كامـلا، وحبل الصفارة يلتف حـول كتفه والخنجـر معلقا ف حزامه ، وفى يده بطارية صغيرة..

وقال ابن عمتي هامسا حتى لا يوقظ من حولى :

ـــ قوم البس جزمتك !

قلت وأنا لا أزال أعاني أزمة الفزع :

ـــ حانروح فين يا حسين.. حانسافر ؟

قال وهو يتعجلني :

ـــ لا .. قوم بس البس جزمتك!

وقد قلت لكم إنى كنت دائما اسير وراء ابن عمتي.. أقلده.. وأأتمر بأمره .. فقمت ألبس حذائى .. وأنا أحبس اعتراضي، حتى لا يعتقد أنى خائف..

ثم خرجنـا من البيت على أطراف أصابعنا.. وأنـا أسير بجانب حسين فى خطوات مهتزة مرتديا الجلبـاب الذى كنت نائما به .. وهـو يسير بخطوات قوية مرتديا زيه الرسمي، ويتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء يصطاده..

ولا أدرى كم كانت السـاعة.. ربما كانت الواحـدة بعد منتصف الليل أو أكثـر.. والظـلام حالك ثقيل حتـى تكاد تلمسـه بيـديك.. والقـرية نـائمـة صامتـة.. ووقع أقدامنا فـوق التراب له صوت كأنـه دبيب حيوان ضخم.. وأعـواد الذرة تتمايل وتصـدر عنها وشوشة هـائلة كأنها فحيح مـلايين الثعابين.

وقلت لابن عمتى وأنا أسرع الخطى لأكون دائما بجانبه ملتصقا به :

— مش تقول لى حانروح فين يا حسين ؟

قال فى بساطة:

— حانروح نشوف العفريت !

ووقفت عن السير مرة واحدة.. وارتعدت ركبتاى.. كلى ارتعش.. وقلت من بين أسنانى المصطكة:

— إيه .. إيه .. إيه.

ونظر إلى ابن عمتى كأنه يحتقرنى.. وقال فى صوت آمر، كأنه ضابط تركى من ضباط الجيش القدامى:

— أنت خايف ؟

قلت وأنا انظر إليه كأنى استغيث به :

— لا .. مش خايف .. مش خايف .. بلاش يا حسين.. والنبى بلاش.

قال فى لهجة الضابط التركى :

— خليك راجل .. احنا لازم نثبت لأهل البلد أن كل الكلام اللى بيقولوه عن العفاريت.. كلام فاضى.. خرافات..

ثم خطا إلى الامام فى خطوات عسكرية، كأنه كان واثقا من أنى لن أستطيع أن أعود إلى البيت وحدى..

ولحقت به والدموع تتجمع فى عينى ، وأنا أحاول أن أحبسها.. وسرت بجانبه أحاول أن استمد منه بعض شجاعته.. وأحاول أن أخطو مثل خطواته العسكرية.. وان ألتفت حولى مثل لفتاته القوية.. ولكنى كلى أرتعد.. وقلبى يرفرف كالحمامة الذبيحة.. والدموع المتجمعة تحت جفونى، تؤلمنى كأنها حبات الحصى..

ولم نتكلم..

والليل الكثيف.. والصمت الثقيل.. ووشوشة أعواد الذرة كأنها فحيح ملايين الثعابين..

ووصلنا إلى منطقة المقابر.. ولم أعد استطيع السير.. وشخط فى ابن عمتى :

ـــ اتجدعن أمال .. خليك راجل !

وامسكت بكم قميصه، وسرت بجانبه، كأنى ازحف ، وهو يشدنى.. إنى خائف.. خائف.. والظلام يملأ عينى.. وأعواد الذرة سوداء.. والفحيح يملأ صدرى..

ووصلنا إلى المقابر نفسها..

إنى لم أعد استطيع.. أحس أنى سأنكفىء على وجهى.. أريد أن أعود.. أريد أن أعود .. وحياة النبى يا حسين..

وحسين يجرنى من ذراعى وراءه ..

ثم أضاء بطاريته وسلطها على المقابر، وقال بلهجة ساخرة:

ـــ ولا عفاريت ، ولا حاجة.

ثم تقدم ناحية قبر من القبور ، وجلس على الأرض مستندا بظهره إلى حائط القبر، والبطارية فى يده، والخنجر فى يده الأخرى .. وجذبنى معه قائلا :

ـــ أقعد .. لغاية ما يشرف سى العفريت !

وجلست ورعشة كالحمى تسرى فى أوصالى.. وأطفأ حسين نور البطارية ولاحت القبور أمام عينى كالأشباح الجالسة.. ووجدت عينى تتركزان على قبر بالذات.. ولا استطيع أن ارفعهما عنه .. ثم رأيت حائط القبر ينشق.. ويخرج منه هيكل من العظم.. يفتح فكيه ويقهقه.. وأنا لا استطيع أن أصرخ.. ولا أن أبكى .. ولا أن التفت بعينى ناحية أخرى .. كل شىء فى متجمد.. الخوف نفسه خائف.. لايستطيع أن يعبر عن نفسه.. لا يستطيع أن ينطلق.. وفجأة أضاء نور ساطع.. وشهقت.. شهقة حادة.. أحسست معها أن روحى زهقت.. وسمعت ابن عمتى يقول لى:

ـــ ما تخافش.. ده أنا ولعت البطارية..

وبدأ ابن عمتى يتكلم.. يتكلم كثيراً.. وأنا لا اسمع كلامه.. انى خائف.. خائف إلى حد الموت.. وارتفع جلبابى من فوق ساقى.. ربما كان الهواء قد طيره.. ولكنى أحسست كأن ذراعى العفريت قد رفعته، وأنه يمد يديه ليمسكنى من ساقى، ويفسخنى.. وحاولت أن أصرخ.. فلم استطع..

حاولت أن أمد يدى لأمسك بابن عمتي.. ولم استطع أن أحرك يدى..

وتنبهت إلى أن ابن عمتى قد كف عن الكلام.. فقلت بما بقى من أنفاسى المرتعشة :

— حسين ..

وسمعته يقول وكأن صوته يرتعش مثل صوتى :

— البطارية ما بتولعش..

ثم سمعته يردد :

— الله لا إله إلا هو الحى القيوم. لا تأخذه سنة ولا نوم.. الله لا إله إلا هو الحى ..

وأنا أرى شيئا فى الظلام يتحرك.. ان الظلام نفسه يتحرك .. ثم فجأة.. انطلقت صرخة حادة.

وجذبتنى يد جذبة قوية .. وأخذت أجرى .. وحسين يجرى أمامى .. وهو يردد :

— الله لا إله إلا هو الحى القيوم.. لا تأخذه سنة ولا نوم.. الله لا إله إلا هو الحى..

ووصلنا إلى البيت..

وسقطت فى الفناء مغشيا علىّ.. وجرنى حسين ، ووضعنى فى فراشى، دون أن يحس بنا أحد..

وفى اليوم التالى.. كنت مريضا.. وظللت أكثر من اسبوعين مريضا..

ولم نرو ما حدث لأحد.. لا أنا ولا حسين.. بل إن حسيناً لم يذكر شيئا عن خنجره الذى عاد إلى البيت بدونه.. ولكنى فوجئت عندما عادت أم ابراهيم تروى لنا قصص العفاريت، بحسين يقول لها :

— يا حاجة بلاش تخريف .. ده كلام فاضى !!

* * *

هذا ما حدث لى وأنا فى الثامنة من عمرى.. ومن يومها وأنا اتساءل : هل توجد عفاريت ؟

وقد قرأت كل الكتب التى يمكن أن تعيننى على الوصول إلى الجواب،

ورغم ذلك فـلا زلت حائرا.. وكلما اقترب عقلى من الجواب ، ثـارت فى نفسى حادثة القرية التى وقعت لى وأنا فى الثامنة من عمرى.. ووجدت نفسى أعود حائرا كما كنت..

وأنا لا أجزم بأنى قد رأيت العفريت فى صغرى ، كل ما اجزم به هو هذه الأحاسيس التى ثارت فى نفسى يوم ذهبنا نبحث عن العفاريت..

والعالم الباحث كى يصل إلى الحقيقـة، يجب أن يتجرد من الأحاسيس. يجب أن يكون عقلا خـالصا.. عقلا فقط.. ولكن العلماء ليسـوا سوى أفراد من النـاس.. ليسـوا سـوى ، انسان.. والله لا يـريـد الانسـان أن يصل إلى الحقيقـة.. إلى كـل الحقيقـة.. فلم يخلق لــه عقلـه فحسب، بل خلـق معـه الأحاسيس التى تضلل العقل..

هل فهمتمونى ؟



سأكتفي بالحب

تسألنى لماذا فسخت خطبتى؟

السبب بسيط، قد يبدو من فرط بساطته غريبا.. ولكنه كان كافيا لأفسخ خطبتى، واخنق حبى، واهدم بيدى كل أحلامى.



واسمع قصتى من أولها.. ولا تنتظر أن تسمع شيئا مثيرا.. فليس فى قصتى حوادث، ولا مأساة، ولا فصول.. انها فصل واحد هادىء، يسير فى رفق كمياه القناة الصغيرة التى تشق أرض الحقل.. وينتهى حيث تنتهى مياه القناة.. تشربها الأرض ولا يبقى بعدها إلا الجفاف.

لقد التقيت بسميحة بين مكاتب الشركة التى أعمل بها.. جاءت لتزور بعض صديقاتها.. وقدمونى إليها.. وتحدثنا طويلا.. وكان حديثها منطلقا ممتعا خفيفا، ليس فيه تكلف ولا نكات مفتعلة.. وكنت أيامها خارجا من مأساة حب فاشل.. وكنت أبحث عن السلوى.. عن شىء اداوى به جرح قلبى، ويشرح صدرى، ويعيد إلى ثقتى بنفسى.. والرجل فى مثل هذه الظروف يصبح ضعيف المقاومة.. يصبح وكأنه فى دور النقاهة، معرض لالتقاط المرض من جديد.

ورغم ذلك فإنى لم أحب سميحة من النظرة الأولى، رغم حديثها المنطلق الممتع.. ولكنى اعجبت بها.. كانت صغيرة.. صغيرة فى عمرها.. وصغيرة فى حجمها.. وصغيرة فى ملامح وجهها.. يخيل إليك انك تستطيع أن تحملها العمر كله، دون أن تتعب.. وكانت أيامها لا تزال طالبة فى كلية الآداب..

وتمنيت أن تأتى كل يوم إلى الشركة، لأراها، واسمع حديثها المنطلق الخفيف.. وقد جاءت.. جاءت كثيرا.. واتصلت أحاديثنا.. وبدأت تمنحنى من اهتمامها أكثر مما تمنح صديقاتها اللاتى جاءت لزيارتهن.

وفى يوم، تركتها تخرج من الشركة، وخرجت وراءها.. لحقت بها فى الشارع، واستوقفتها، وقلت لها فى لهجة جدية كأنى أعرض عليها بوليصة تأمين على الحياة:

— هل لك علاقات عاطفية ؟

وفوجئت بالسؤال، ولكن طبيعتها البسيطة تغلبت على دهشتها، واجابت وهي تبتسم :

— لا .. ليس لى علاقات عاطفية !

قلت وأنا لا زلت محتفظا بلهجتي الجدية :

— هل تمانعين فى أن نكون أصدقاء ؟

واتسعت ابتسامتها كأنها فرحة بهذا الأسلوب الجديد فى التقدم لها، وقالت :

— لا .. لا امانع !

قلت :

— ارجو أن تفهميني .. فانا لا أحبك، ولا اعتقد انك تحبينني .. وكل ما أطلبه منك أن نبدأ صداقة، قد تنتهى إلى حب، وقد تنتهى إلى لا شيء.

قالت :

— انك خائف.. لابد أن فى حياتك صدمة عاطفية.. حب فاشل !

قلت وأنا مبهور بذكائها :

— ما ادراك انني خائف.. وما ادراك أن فى حياتي حبا فاشلا .

قالت :

— لأن هذا التحذير عن مصير صداقتنا، هو تحذير لنفسك.. حتى لا تخدع فى الحب مرة ثانية!

ولم أخف عليها.. اعترفت لها بصدق احساسها.. ورويت قصة حبي الفاشل، بل رويت لها منذ اليوم الأول قصة حياتي كلها، حتى اسم أمي ذكرته لها.

وأصبحنا أصدقاء.

مجرد أصدقاء.

نلتقي مرة أو مرتين فى الأسبوع.. ونذهب إلى السينما، أو نجلس فى كازينو الشجرة.. ونتحدث .. ولا شيء أكثر من هذا.

ولكن ..

بمرور الأيام بدأت أشعر بالحاجة إليها.. بدأت انتظر موعدها.. واشتاق إليها.. وأعد نفسي للقائها.. ولم أعد احتاج إليها لأداوى بها جرح قلبى القديم، فقد اندمل الجرح.. ونسيت الفشل.. وأصبحت احتاج إليها لذاتها.. بدأت أحبها وأحسست انها تحبنى هى الأخرى.. انها تترك يدها فى يدى.. وتضم عينى بعينيها.. وابتسامتها تشرب من ابتسامتى.

وسألتها مرة :

— ألم يكن فى حياتك حب .. ألم تكن لك علاقة سابقة بأحد من الشبان؟

قالت :

— أبدا.

قلت :

— لا تخفى علىّ .. فأنا كما تعلمين لا أحبك، وأنت لا تحبيننى.. اننا أصدقاء، ولن يؤثر فى صداقتنا أن تكون قد مرت بك تجربة حب.

قالت :

— لا.. لم تمر بى تجربة حب!!

قلت :

— مستحيل .. انك الآن فى العشرين من عمرك .. ولابد أن تجربة مرت بك.. ولو تجربة قبلة.

قالت :

— لا.. ولا حتى تجربة قبلة.. صدقنى!!

وصدقتها.

وأحببتها.

لم أعد أخفى عن نفسى، ولا عنها، انى أحبها.

وأحبتنى.

وانطلقنا فى أرض الحب.

انطلقنا بكل ما فى شبابنا من قدرة على الانطلاق.. كانت تخرج كل يوم من الجامعة، وتنتظرنى على ناصية الشارع الذى تقع فيه الشركة.. ثم نذهب سويا لنتناول الغداء.. قطع من الساندويتش فى محل البامبو.. ثم

نذهب إلى السينما.. أو إلى حديقة الاندلس.. أو إلى كازينو الشجرة.. ويدى دائما في يدها.. وعيناى في عينيها.. وابتسامتي تشرب من ابتسامتها.. وحديثنا لا ينقطع.. ونظل سويا حتى الساعة الخامسة، وأحيانا إلى السابعة.. ثم تعود إلى بيتها.. وبمجرد أن ينام أهلها تتصل بي في التليفون، ونظل نتحادث حتى الثالثة أو الرابعة صباحا.. من أين كنا نأتي بكل هذا الكلام؟ لا أدرى!

وبدأت فكرة الزواج تراودني.. ولكني كتمتها عنها.. وأخذت أمهد لها.. لفكرة الزواج.. فدعوتها إلى بيتي لتتعرف إلى أمي وإلى اخوتي البنات.. وأحبتها أمي، وأصبحت صديقة لإخوتي.. وبدأت تزورنا كثيرا.. وبلا موعد.. ورأتني كما أنا في بيتي.. رأتني بالبيجاما.. وأنا أحلق ذقني.. وأنا اشخط في خادمتنا بهية.. وخيل إلى أن بيتنا قد ازداد سعادة بها.. اننا نمرح دائما.. ونضحك كثيرا.. والدنيا من حولنا حلوة.

وجاءت مرة إلى البيت، ولم يكن فيه احد إلا أنا.. خرجت أمي واخوتي.. وربما تعتقد انى تعمدت أن أبقى في البيت وحدى.. لايهم.. اعتقد ما تعتقده.. المهم اننا وجدنا أنفسنا وحيدين في البيت.. وحاولنا أن نتحدث كعادتنا.. ولكننا شعرنا ـ نحن الاثنين ـ اننا في حاجة إلى شيء أكثر من الحديث.. شيء انتظرناه طويلا.

وسكت الحديث بيننا.. واقتربت عيوننا.. و.. ومددت ذراعي إليها، كأني ادعوها إلى الجنة.. ثم .. ثم قبلتها.. بكل شبابي.. بكل حبي.. بكل انطلاقي.

وفجأة، رفعت شفتي عن شفتيها.

لا ..

ليست هذه قبلة فتاة لم تذق القُبَل من قبل. انها قبلة من شفاه خبيرة بالقبلات.. إن البنات مغفلات.. انهن لا يعلمن أن الشاب يستطيع أن يميز بين الشفاه البكر، والشفاه المجربة ، من أول قبلة.

وصرخت فيها :

ـــ من علمك التقبيل ؟

قالت في ارتباك :

— لا احد.. لم يقبلني احد قبلك!

قلت صارخا :

— كاذبة.. إن قبلتك قبلة فتاة مجربة!

قالت كأنها تتوسل إلىّ :

— ربما كان حبي، قد اطلق شفتي!

قلت :

— هذا كلام.. لقد خدعتيني!

وغضبت.

وتركت البيت غاضبة.

ولكنى ما لبثت أن هدأت، وبدأت ألتمس لها الاعذار.. ماذا لو كان قد قبلها احد قبلي.. لماذا يبيح الشاب لنفسه حق التجربة ولايبيح نفس الحق للبنت.. انها شريفة.. وقد مضى على حبنا أكثر من سبعة شهور تأكدت خلالها انها شريفة، وان ليس فى حياتها احد غيري.. ولن يقلل من شرفها أن يكون فى حياتها أحد قبلي.

وعدت إليها ..

وبدأنا الحب من جديد.. أكثر انطلاقا.. وأكثر جرأة.. لم تعد تكفينا السينما، أو كازينو الشجرة.. ولم يعد يكفينا الحديث.. اننا نريد القبلات.. ومزيدا من القبلات.. ونحن نلتقى كل يوم.. ونتحدث فى التليفون حتى الصباح.

ولم يعد هناك مجال للتردد.. لم أعد احتمل التردد.

ذهبت إلى أهلها.. وخطبتها.

ثم..

ثم بدأ كل شيء يتغير.

لقد دعونى فى اليوم التالى لاعلان الخطوبة، للغداء عندهم.. وجلست معها بين ابيها وأمها واخوتها.. كأنى جالس أمام محكمة.. والأسئلة سخيفة، والاجوبة أسخف منها.. وحديث ممزق، ونكات مفتعلة.

واحتملت كل هذا، وهمست فى أذن سميحة :

ـــ لنذهب إلى السينما .. بعد الغداء.

وإذا بسميحة تصيح :

ـــ ماما، محمود يدعوني إلى السينما ؟

وابتسمت الأم ابتسامة كبيرة وقالت :

ـــ وماله ياحبيبتي.. ويذهب معكما اخوك!

وذهبنا إلى السينما ومعنا اخوها.. ويدي ليست في يدها.. وعيناي لا تضمان عينيها.. وابتسامتي لا تشرب من ابتسامتها.. ولا قبلات !

وفي اليوم التالي لم تنتظرني على ناصية الشارع الذي يقع فيه مقر الشركة.. واتصلت بها في التليفون ملهوفا ، وقد اعتقدت انها مريضة.. وردت علي.. انها ليست مريضة.. ولكنها تنتظرني في البيت لتناول الشاي.

وذهبت لتناول الشاي.. وجلست معها أمام المحكمة.. الأسئلة السخيفة.. والاجوبة السخيفة.. والنكات المفتعلة.. والحركات المتكلفة.

ولا اطيل عليك .

أصبحت عريسا.

بكل ما يحيط بكلمة عريس من تكلف زائف، ومن رسميات، وتقاليد فارغة، لم أعد أرى سميحة وحدها.. اذهب إليها لأجلس معها بصحبة أهلها.. وتأتي إلى بيتنا ومعها أمها.. ولم أعد أقبلها إلا خلسة.. كلما سمح أهلها وتعمدوا أن يتركونا وحدنا بضع لحظات.. ولم أعد اخرج معها إلا بصحبة احد من أهلها.. ولم يعد حديثنا التليفوني يدوم حتى الصباح.. كأنما إعلان خطوبتنا قد اغنى سميحة عن الحب.. كأنها ضمنت اني أصبحت في يدها، فلم تعد تبذل مجهودا للاحتفاظ بي.

وكان هذا فوق منطقي.

لم أستطع أن أقنع نفسي بأن حقي على سميحة قبل الخطوبة، يزيد على حقي عليها بعد الخطوبة.

لم أستطع أن أقنع نفسي أن الخطوبة لها تقاليد، ولها مظاهر، تختلف عن تقاليد ومظاهر الحب.

لم أستطع أن أقنع نفسي بأن الخطوبة حرمان، ورسميات، وتقاليد سخيفة.. وقضبان من حديد يضعها الأهل بيني وبين خطيبتي.

ولم أعد احتمل.

ارسلت إلى سميحة انـذارا مدتـه أسبوع واحد.. ان لم نعـد كما كنا.. إن لم نعد إلى انطلاقنا ومظاهر حبنا خلال هذا الأسبوع، فإن على سميحة وأم سميحة وأبى سميحة، ان يتحملوا نتيجة ما يحدث.

ولم تستسلم سميحة إلى الانذار.. ربما لم تصدقه.

وبكل بساطة.. فسخت الخطبة.

وصدقنى..

لن أخطب ثانية.. سأكتفى دائما بالحب!



الكبار والصغار



انكم تتحدثون كثيرا عن سن المراهقة، وتصفون المراهقين بالانحلال.. وتنسبون أسباب انحلالهم إلى الأفلام السينمائية حينا، وإلى القصص الجنسية حينا آخر، وإلى اهمال الآباء.. و.. و.. كل منكم يحاول أن يجد سببا جديدا لانحراف المراهقين، ليبدو أمام قرائه استاذا كبيرا جليلا، وقائدا من قادة الجيل..

اسمحوا لى .. كلكم جهلة.. أو مدعون!

لقد كنت مراهقا.. آسف.. أنا لا زلت مراهقا.

وأنا منحل.. كل الصفات التي تصفون بها المراهقين تنطبق علىّ.. الانحراف، الاستهتار، قلة الأدب، الانغماس فى اللهو.. و..و.. كلها من صفاتي، بلا فخر!

وأنا أعرف بالضبط سبب انحلالى وانحرافى، وليس بينها ـــ للأسف ـــ سبب من الأسباب التى تفتقت عنها عبقرياتكم.. فأنا لا أذهب إلى السينما إلا نادرا.. وآخر فيلم شاهدته كان فيلم «خالد بن الوليد».. ياحفيظ.. وأنا لا أقرأ قصص إحسان عبدالقدوس.. انى فى الواقع لا أقرأ القصص أبدا.. حاولت مرة أن أقرأ قصة «شجرة البؤس» لطه حسين، فلم أستطع أن أقرأ فيها أكثر من أربع صفحات.. والمجتمع الذى نشأت فيه ليس له مشاكل.. لا مشاكل اقتصادية ولا نفسية.. ووالدى رجل فاضل، لا يدللنى، ولا يهملنى، ولا يقسو علىّ، بل يحاول دائما أن يناقش أخطائى فى هدوء.. ووالدتى سيدة فاضلة تحيطنى بحنان حازم.

وحتى سن السادسة عشرة، كنت فتى رائعا.. كنت أنجح دائما فى كل امتحان.. وكانت هوايتى هى الشطرنج.. و.. عضلاتى.. كنت اهتم اهتماما كبيرا بعضلاتى.. كنت رياضيا.. بطل النادى فى الاسكواش راكيت.. وكنت ألعب التنس.. وكرة السلة.. وكرة القدم.. والكرة الطائرة.. واشترك فى مسابقات السباحة .. و..

وكنت أحب سعاد .. سوسو..

كانت في الخامسة عشرة من عمرها.. أصغر مني بعام.. حلوة.. جريئة.. هي التي علمتني كيف أقبلها.. كانت أول فتاة أقبلها في حياتي.

وكانت سوسو تحبني..

لم أشك أبدا في حبها.

وكنا نلتقي كل يوم في النادي بعد عودتنا من المدرسة.. وتقف لتشاهدني وأنا ألعب الاسكواش.. وكنت أحس انى ألعب من أجلها.. لم أكن أسمح لأحد أبدا بأن يغلبني أمام سوسو.. كنت انتصر دائما.. وأحس انى اعطيها انتصارى لتتباهى به أمام بقية فتيات النادى.. ثم بعد أن انتهى من اللعب، كانت تنتظرنى إلى أن أبدل ثيابى ثم نتمشى سويا في ملاعب النادى، أو ننضم إلى شلة الأصدقاء.. ونتحدث .. حديثنا لا ينضب أبداً .. وعيناى لا تملان عينيها .. وعيناها لا تملان عينى.

وانقضى عام على حبنا.

وفي يوم، لمحت سوسو واقفة في النادى مع شاب.. رجل.. انى أعرفه.. انه واحد من الرجال الذين يجلسون في بار النادى وهو في الثلاثين من عمره ــ على الأقل ــ له شارب صغير، ويملك سيارة شيفروليه.

لماذا تقف سوسو معه ؟

ووقفت بعيدا انتظر أن ينتهيا من حديثهما.. لم اجرؤ على ان انضم إليهما أو أناديها.. لا أدرى لماذا.

وطال انتظارى.

ثم تركته وجاءت إلى، وهى تتقصع في مشيتها أكثر من عادتها.. ورأسها مرفوع، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة، وقالت لى في لهجة مفتعلة كأنها تحادث طفلا:

ــ ازيك يا جلال.. لعبت اسكواش ؟!

ونظرت إليها كأنى أبحث فيها عن شىء فقد منها، وقلت وقد بدأت أعصابى تهتاج :

ــ مين اللى كنتى واقفة معاه ده ؟

قالت بلا مبالاة :

— ده محمد .. ما تعرفوش ؟
قلت وأنا أكاد أخنقها بعيني :
— ايوه عارفه .. انما ايه اللى وقفك معاه؟
قالت وهى تهز كتفيها وتزيح خصلة من الشعر وقعت على جبينها :
— وفيها ايه .. ده صاحب أخويا.
قلت :
— ده أد أبوكى.
قالت فى حدة :
— من فضلك .. أنـا مش صغيرة .. أنا عندى سبعتاشر سنة.. ثـم انه مش أد أبويا.. قلت لك انه صاحب أخويا.. وعمره ما يكملش التلاتين !

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تحتد فيهـا.. وتكررت مشاداتنا.. وكلها كانت بسبب، سى محمد هذا.. ولكن سوسو كانت تجد دائما وسيلة لإنهاء خناقـاتنا.. وكـانت أقوى وسائلهـا قبلتها.. وكـانت لا تزال تحرص على أن تشاهدنى فى كـل مرة ألعب فيها الاسكواش.. لأمنحها النصر الـذى تتباهى به أمام بقية الفتيات.

ثم كانت المبـاراة النهائية على كأس النادى.. ولم أعثر على سـوسو قبل المبـاراة.. وارتديت ثياب اللعب، وذهبت إلى الملعب، ووقفـت فى انتظارهـا.. ولكنهـا لم تأت.. وجـاء دورى فى الملعـب.. وهى لم تأت.. ووقفت سـاهما.. خيل إلى انى لـن استطيع أن انتصر إذا لم تأت ســوســو.. لن استطيع أن ألعب.. وفجأة تـركت الملعب، والجمهور يصيح ورائى ولا اهتم بصيـاحه.. وخرجت إلى حـدائق النادى أبحث عن سوسو، ومضرب الاسكـواش لا يزال فى يدى.

ورأيتها .

رأيتها من بعيد.

كانت تسير مع محمد، متجهين إلى موقف السيارات..

وظللت واقفا حتى شـاهدتها تركب بجانبه فى سيـارته.. ثم تنطلق بهما السيارة.. إلى بعيد.

وفجأة.. دون أن أدرى.. رفعت ذراعى وطـوحت بمضرب الاسكـواش فى

الهواء.. وخـرجت من النادى وأنـا لا زلت بملابس اللعب.. وأخـذت أسير ف الشـوارع ف خطـوات سريعـة متعثـرة كأنى أهـرب.. أهـرب من وحش يـلاحقنى.. وفى رأسى نار.. وف قلبى نـار.. وف عينى نار.. مـاذا أفعل.. هل ادبر جريمة لقتل محمد.. هل اقتل نفسى.. أرمى نفسى ف النيل.

وعدت إلى البيت.. وانكفأت على سريرى ابكى.. بكيت كثيرا.. وأفقت من بكائى، وأنا أسائل نفسى: ماذا يعجب سوسو ف محمد؟

يعجبها فيه انه كبير.. انه رجل!!

وأنا أيضا كبير.. أنا رجل.. وكل مـا ينقصنى لاتخذ مظهر الرجال هو أن يكون لى شارب.. شارب صغير كشارب محمد!

ونظـرت إلى وجهى ف المرآة.. انى احلق ذقنى وشـاربى كل يـومين.. ولو انتظرت أسبوعا واحـدا دون أن احلق، لاصبح لى شارب.. ولحية أيضا إذا أردت!

وانتظرت أسبوعا.

وأصبح لى شارب.

وذهبت إلى النادى.. وقد قررت أن أبـدو أمام سوسو مستهترا.. و.. واد تقيل .. وقابلتها، ونظرت ف وجهى، وصاحت :

— أنت حاتربى شنبك ؟

قلت وأنا انظر إليها من عل كأنها فتاة صغيرة :

— مش عاجبك ؟

قالت :

— مش لايق عليك !

قلت وأنا أضحك ضحكة غليظة، كضحكة الرجال :

— بكره تاخدى عليه!

ثم نظرت ف عينيها وقلت :

— وانتى عاملة ايه مع محمد.. شفتك الجمعة اللى فاتت ف عربيته؟

قالت :

— أصل كان عندى مغص، وخدنى يوصلنى البيت.. وانت ما لعبتش

يومها ليه؟

قلت ساخرا :

— كان عندي مغص.. بس ما لقتش حد يوصلني البيت.

قالت وهى جالسة :

— ومش حاتلعب النهاردة ؟

قلت :

— بيني وبينك الواحد كبر خلاص على اللعب!

قالت :

— طيب تعالى نقعد فى الجنينة.

قلت :

— لا.. أنا حاقعد فى البار.. عن اذنك!

وتركتها ودخلت البار.. لأول مرة.. ووجدت هناك شلة من أصدقائى الأكبر منى سنا، فجلست معهم.. وشربت الويسكى.. لأول مرة.. ودخنت السجائر.. لأول مرة.. ولن أصف لك طعم الكأس الأول، والسيكارة الأولى، فلابد انك تعرف طعمهما.. ولكن المهم.. انى أصبحت كمحمد.. لى شارب صغير.. مثله.. وأشرب الويسكى.. مثله.. وأدخن مثله.

ولم تعد لى سوسو.. لم تعد تحاول أن تكذب علىّ وترضينى.. اندفعت بكل صباها، وكل جمالها، وكل وقتها الفاضى، مع محمد.. محمد الذى يكبرها بأربعة عشر عاما على الأقل.

ولم أكن استطيع أن أسكت.

كان يجب أن أنتقم منها.

ولم تكن هناك طريقة لانتقم منها، إلا بأن أعرف بنتا أخرى.. بل كثيرا من البنات.. ولم أكن أستطيع أن أعرف البنات إلا إذا خدعتهن، وضحكت عليهن.. وتعلمت كيف أخدعهن وأضحك عليهن.. وكيف آخذ أجسادهن، ثم أدور أحكى لأصدقائى قصة جسد كل منهن.. فإذا جاءت سيرة سوسو، صحت ضاحكا :

— قديمة يا أستاذ.. شوف لنا حاجة جديدة!

وكان ينقصني كي تتم رجولتي الجديدة أن تكون لى سيارة.. فكنت آخذ سيارة العائلة.. آخذها أحيانا برضاء والدى، فإذا لم يرض، سرقتها من الجاراج.. وكان ينقصني كثير من المال لأشرب الويسكي، وأدخن، وأسهر في الكاباريهات.. وكان والدى يعطيني كثيرا، فإذا لم يعطني سرقت.. لم أبدأ بالسرقة ولكني بدأت ببيع جميع أدواتي الرياضية!

وفي خلال عام أصبحت واحدا من المراهقين الذين تتحدثون عنهم في الصحف..

ثم ..

أتدرى ماذا حدث ؟

عادت إلىّ سوسو .. خدعها محمد ولم يتزوجها.. خدعها لأنه رجل .. وقد جاءت إلىّ تبحث عن السلوان.

ولكني رجل أنا الآخر.

أنا لا أقل عن محمد.

والرجال يخدعون البنات.. فلماذا تعتقد انى لن اخدعها.. لماذا تطمئن إلىّ.. هل تعتقد انى طفل.. طفل لا أجيد فنون الخداع؟!

وخدعتها.

خدعتها أكثر مما خدعها محمد !

ماذا تقول يا أستاذ؟!

تقول انى مراهق سافل منحرف.. ولكن.. إن الرجال أيضا سفلة منحرفون!!



لن أقرأ الصحف



أنـا رجل بسيط الحال.. غـاية مـا وصلت اليه ان اشتغلت سائقا لسيارة السيد مرسى عبدالعـزيز مدير شركة التوريـدات، بمرتب قدره خمسـة عشر جنيهاً فى الشهـر.. ولاأظن انى سأصـل فى حيـاتى إلى أكثـر من هـذا.. والواقع انى لا أطمع فى أكثر من هذا ..

وقـد تـزوجت مـن ابنـة عمى وأنـا فى العشرين من عمرى .. امرأة قـروية طيبـة ، لا تقرأ ولا تكتب .. ولكـن لها من ذكائهـا وطيبة قلبهـا مـا يغنيهـا عن القـراءة والكتابـة.. ورزقت منهـا بينتين.. فـاطمـة، وسميرة.. وسميرة أجمل وأرق من فـاطمة.. عينـاها واسعتـان كعينى أمى.. ولجمالها ورقتهـا منحتهـا من حبى ورعايتى أكثـر ممـا منحت اختها..

وأنـا لم اتم تعليمى.. لم أنل أكثـر من الشهادة الابتـدائيـة.. وليست لى هوايات.. لا أدخن ولا اتردد على المقـاهى، ولا أشرب الخمر.. لا شىء أبداً.. هوايتى الوحيدة هى قـراءة الصحف والمجلات.. كنت ادفع لعبد المنعم بائع الجرائد الـذى يقف أمام مقـر الشركـة، خمسـة قروش فى الاسبـوع، نظير قـراءة جميع الصحف والمجلات العـربية، على ان اردهـا اليه فى نفس يـوم صـدورهـا.. وكنت أقـرأ كل شىء فى الجريـدة أو المجلـة.. مـا يهمنى وما لا يهمنى.. ومـا افهمه وما لا افهمه.. ان الكلمة المطبـوعة لها علىّ تأثير السحر، كـا لمخدر انى ادمن على الكـلام المطبوع.. وربما لـو قدمت لى نفس الكـلام مكتوبـا بخط اليد، لما قـرأته، ولـو قرأتـه لما اقتنعت به ولما تـرك فى نفسـى أثـراً.. ولكن إذا طبع هذا الكـلام فى جريـدة أو مجلة شربتـه بعينى، وبعقلى، وبكل حواسى..

وكان أكثـر ما اهتم بقـراءته هـو ما يكتب عن البنـات.. ربما لأنى ـ كما تعلمون ـ اب لبنتين.. وكانت الآراء التى تـدعو إلى حريـة البنت، وتعليمها، واقتحامها ميادين العمل.. و.. و.. هذه الآراء التى يـدعو اليها كبار الكتاب، كانت تحيرنى، وتثير فى نفسى معركـة عنيفة.. فقد نشأت فى بيئة لا تعترف

البنت بشيء من هذه الحقوق، بل لا تعترف لها حتى بحق التعليم.. كل بناتنا جالسات فى البيوت.. وأمي لا تقرأ ولا تكتب، واختى لا تقرأ ولا تكتب، وزوجتي لاتقرأ ولاتكتب.. ونحن قوم سعداء.. بيوت سعيدة، وازواج سعداء، وأولاد سعداء.. ورغم ذلك فسحر الكلمة المطبوعة يسرى فى اعصابي ويتسلل إلى عقلي.. إلى أن تجرأت وادخلت فاطمة وسميرة المدرسة..

ولم اطمئن إلى جرأتي فى مبدأ الأمر.. كانت الجذور التي تربطني بأجدادى وبيئتي تجعلني احيانا أثور على نفسي لأني ادخلت البنتين المدرسة.. وتجعلني افكر كل يوم فى اخراجهما منها.. وكنت ارقبهما فى رواحهما وغدوهما، وانظر إلى وجهيهما كأني ابحث فيه عن آثار فضيحة، أو بصمات رجل.. ثم مع مرور الأيام بدأت الجذور التي تمتد إلى اجدادى وبيئتي، تضعف وتموت.. وأصبحت مطمئنا إلى تعليم البنتين.. وكلما انتهتا من مرحلة من مراحل التعليم، دفعتني الكلمة المطبوعة، إلى السماح لهما بالانتقال إلى مرحلة أخرى.. حتى نالت كل منهما شهادة الثقافة الثانوية.. ولم اكن اطمع، ولا كان فى قدرتي، ان اتركهما يستمران فى التعليم إلى أكثر من هذا الحد..

ثم بدأت أزمة نفسية تنتابني من جديد.. هل اسمح للبنتين بالعمل؟ واحسست ان الجذور التي تمتد إلى أجدادى وبيئتي قد نشطت من جديد وبدأت تقلقني.. ليس فى بلدتنا كلها فتاة تعمل أو امرأة تعمل.. كلهن جالسات فى البيوت.. ولكن الكلمة المطبوعة تحرضني.. وتتسلل إلى منطقي.. ان ملايين البنات يعملن.. فى المصانع فى الشركات، فى الاتوبيس، فى هيلتون.. وكلهن بنات لهن آباء مثلي.. فلماذا لا أسمح لبناتي بالعمل..

وقررت ان اسمح للبنتين بالعمل.. وفرحت البنتان.. وجاء ابن اخي يخطب سميرة ـ البنت الصغرى ـ ولكنها رفضت.. لأنها تريد ان تعمل.. وأنا اريدها ان تعمل..

وسعيت لهما عن طريق مخدومي السيد مرسي عبدالعزيز، حتى وجدت لكل منهما عملا.. اصبحت فاطمة موظفة فى البنك اليوناني.. وأصبحت سميرة موظفة فى الشركة التي اعمل بها.. شركة التوريدات..

وازدادت فرحتي بهما..

لقد عوضني الله عن إنجاب الأولاد.. انهما أكثر بركة وخيرا من الأولاد..

وارتفع دخل العائلة.. ان مرتب سميرة اثنى عشر جنيهـا، ومرتب فاطمة خمسـة عشر جنيهاً ـــ مثل مرتبي.. مـا شاء الله ـــ.. اصبح دخلنـا اثنين واربعين جنيها في الشهـر.. واستطعنا ان ننتقل إلى الـدور العلوى من البيت الذى كنا نسكن منه الدور الارضى.. شقة مشمسة منيرة.. تشرح الصدر.. بحرى قبلى..

وازداد ايمانى بالكلمة المطبوعـة.. ورفعت المبلغ الذى ادفعه لعبد المنعم بـائع الصحف، إلى سبعـة قـروش، نظير قـراءة كل الكتب الشهـريـة وغير الشهرية، التى يبيعها، علاوة على قراءة الصحف والمجلات..

ومر عامان ونحن نرفل في حياة سعيدة مطمئنة.. ورغم ان سميرة تعمل معى في نفس الشركـة، فاننى لم أكن التقى بها خـلال ساعات العمـل.. كان مكتبها في مبنى آخر تابع للشركـة، غير المبنى الذى يقع فيه مكتب مخدومى السيد مـرسى عبدالعزيـز.. وكانت مـواعيد عملها غير مواعيد عملى.. انما كنت التقى بها وبأختهـا في البيت بعـد العـودة من العمـل، ونقضى معـاً ساعات طويلة حلوة، كل منا يقص على الآخرين ما صادفه في يومه..

وسميرة سعيدة.. وسعـادتها تزداد يـوماً بعد يـوم.. حتى خيل إلىّ انها تـزغرد دائما.. في عينيهـا زغرودة.. وفـوق كل خـد زغرودة.. وضحكـاتها زغـاريد.. وابن عمهـا لايزال يلح في خطبتهـا.. انه يحبهـا المسكين.. وربما كانت هى الأخـرى تحبه.. ولكنهـا تحب العمل.. وتحب حريتها.. أكثـر مما تحبه..

ثم..

ثم بدأت الـزغاريد تخفت في عينى سميرة، وتختفى من فـوق وجنتيها.. وبدأت ألحظ عليها وجوما متصلاً.. لم تعـد تشاركنا حديث المساء.. لم تعد تضحك.. لم تعد تأكل.. وأصبحت تـذهب إلى عملها في الصباح كأنها تحمل عبئا ثقيـلاً تجر من تحته قدميهـا.. وتعود في المساء أكثر اعيـاءا وانهيارا.. وهى تـذبل.. وتـذبل.. وتزداد هـزالاً.. ثم بـدأت تنتـابها نوبـات اغماء في مكتبها.. ونصحتهـا مراراً أن تذهب إلى طبيب الشركة.. وربما كـانت تذهب إليه، أو لا تذهب.. ولكنها لا تزال تزداد هزالاً، ونوبات الاغماء تعاودها..

واغمى عليها مرة وهى في البيت، فأسرعت إلى طبيب الشركـة، وعدت به..

وفحصها.. ثم طلب منا جميعاً ان نخرج من الغرفة.. واختلى بها طويلاً، ثم خرج الينا، وانتحى بي جانباً، وهمس في اذني بصوت حزين، كأنه ينعيها إليّ:

— انها حامل ..

انها لا تزال عذراء ..

ولكنها حامل ..

وبهت .. أحسست بالغرفة تدور بي.. رأسي إلى أسفل وقدمي ملتصقتان بالسقف.. ولا أدري كيف خرج الطبيب، ولا متى.. ولكن الدنيا ظلت تدور بي.. وأنا احاول جهدي أن اوقف دورانها، وان اتمالك اعصابي.. وان افكر..

وأنا رجل بسيط.. مسالم.. لا استطيع ان افكر في القتل، أو في الثأر.. لم يخطر على بالي لحظة واحدة ان اقتل سميرة، أو الرجل الذي خدعها.. كل ما خطر لي هو كيف اداري فضيحتها.. وأصحح غلطتها.. وحاولت ان استعيد كل الكلمات المطبوعة التي قرأتها، لعلّي أجد فيها ما يرشدني إلى الحل..

وزوجتي تخبط على صدرها وتولول.. بنتي.. يا خسارتك يا بنتي.. كان الموت اهون يا بنتي..

وابنتي فاطمة بجانبها تبكي في صمت..

وطلبت منهما ان يسكتا حتى لا تنتشر الفضيحة بين الجيران.. اسكتا.. وصفعت زوجتي صفعة قوية.. فسكتت..

ودخلت إلى سميرة وجلست بجانب فراشها يومين متتاليين وأنا اتوسل اليها ان تقول لي اسم الرجل الذي خدعها.. قولي يا بنتي.. لا تخافي.. لن اقتله.. انت تعلمين انني لا استطيع ان اقتل فرخة.. فقط سأحاول ان اساعدك.. ربما هداه الله وداري فضيحتك..

واخيراً نطقت ..

انه الاستاذ عزت مراد ..

واقتلعت الدهشة قلبي .. انه مدير فرع الشركة.. وهو غني، يملك سيارة شفروليه موديل ٥٨.. وهو من عائلة كبيرة.. انه ليس من طبقتنا.. فماذا أغراه ببنت مسكينة ضعيفة مثل سميرة..

وذهبت اليه مباشرة، ووقفت أمامه ذليلاً منكسرا، لا أعرف كيف ابدأه الكلام.. ورفع إلىّ وجهه اللامع، وتحركت شفتاه الموردتان من تحت شاربه الأصفر الأنيق، وقال وهو يبتسم:

— خير يا أسطى نعمان ؟

قلت فى ذل :

— بنتى سميرة يا بيه ..

قال وقد بدأت عيناه تضطربان :

— مالها ..

قلت :

— الله يستر عرضك يا عزت بيه .. استرها وحياة النبى.. انت برضه ابن ناس.. و..

وصاح فى وجهى :

— مش فاهم ..

قلت وأنا أكاد أبكى :

— دى حامل يا سعادة البيه ..

وعاد يصرخ :

— وأنا مالى .. ايه دخلنى فى الموضوع ده.. يمكن بتلم اعانة علشان تولدها !

واحتملت وقاحته، وقلت :

— دى قالت لى على كل حاجة .. استرها، يسترك ربنا.. انت مايخلصكش تسيبها فى الحالة دى..

وصرخ صرخة هائلة :

— انت مجنون يا راجل انت .. امشى اطلع بره..

وخرجت من مكتب السافل، المجرم، الدنىء.. عرفت ان لا أمل من مخاطبة ضميره.. فخاطبت مدير الشركة، السيد مرسى عبدالعزيز.. وصدقنى المدير.. انه رجل طيب ورع.. وطلب منى ان أقدم له الاتهام مكتوبا.. وقدمته.. فأصدر قرارا بوقف المجرم عن العمل، إلى حين انتهاء التحقيق..

وانتشرت القصة بين كل موظفى الشركة.. وتدخل الرؤساء ومحامى

الشركة.. وسميرة مريضة، تزداد ضعفاً وهزالاً..
ثم ..
أتدرون ماذا حدث؟
قدم المجرم عزت مراد بلاغا إلى النائب العام يتهمني أنا وابنتي سميرة بالتشهير به، ومحاولة إلصاق تهمة كاذبة به..
هو الذي لجأ إلى النيابة..
لا أنا
تصوروا.. إلى هذا الحد تبلغ الصفاقة، والوقاحة، والاجرام..
واستدعتني النيابة للتحقيق.. ورويت القصة كما عرفتها أمام المحقق.. ثم استدعوا ابنتي سميرة، وحملتها حملاً اليهم، لعل النيابة ترد اليها شرفها..
وقالت سميرة ان عزت خدعها.. وغرر بها وصحبها إلى بيته، وقدم لها كوبا من الشاى مذاب فيه مخدر ولم تدر بعدها، ماذا حدث..
ولكنها كانت تكذب..
حتى انا شعرت وانا اسمعها، ان قصة الشاى المسموم، قصة كاذبة وربما اضطرت سميرة إلى الكذب لأنها خجلت من ان تصرح بأنها استسلمت بارادتها.. وهى تعلم ان سنها فوق العشرين، والقانون لا يعاقب الرجل الذى ينال فتاة فوق العشرين، بإرادتها.
ولكن لماذا لجأت إلى قصة الشاى المسموم؟
ان هناك ما هو أخطر من الشاى المسموم..
هناك الكلام المسموم..
والوعود الزائفة..
والضعف البشرى نفسه..
ان كل هذا يمكن استغلاله فى ارتكاب جريمة، اكثر مما يمكن استغلال الشاى المسموم..
ولم يجد المحقق دليلاً على قصة سميرة..
وثبتت علينا تهمة التشهير بالأستاذ عزت مراد.. وأصبحنا نتوسل اليه.. ونجرى وراءه.. ونوسط لديه الأصدقاء.. حتى يتنازل عن دعواه، فلا نقدم إلى المحاكمة..

تصوروا..

بدلا من ان اطالبه برد شرف ابنتي.. اصبحت اتوسل اليه ان يعفو عني، وعن ابنتي، لأننا تجرأنا على المطالبة بحقنا.. وحياتك يا بيه.. أبوس ايدك.. ده احنا ناس غلابة..

وطبعاً ، اضطر مدير الشركة السيد مرسي عبدالعزيز، إلى اعادته إلى العمل.. مع الاعتذار الكافي..

وسميرة لا تزال مريضة، وتزداد هزالاً وضعفا..

وابن عمها يحبها - وقد سمع بالقصة - ورغم ذلك يلح ان يتزوجها.. وسميرة ترفض.. ثم قالت له وهو لا يزال يلح عليها:

— انا حامل ..

قال :

— ولو .. انتي لحمي ودمي .. واللى اعتدى عليكي اعتدى عليّ.. وفضيحتك فضيحتي.. واحنا الاتنين حا نداريها سوا .. حانتسى..

ولكنها اصرت على الرفض ..

ثم ..

ثم ماتت ..

●●●

أتدرون ماذا حدث؟

لقد أخرجت ابنتي فاطمة من عملها.. حتى لا تموت هي الأخرى.. وحبستها في البيت.. كأمي.. واختي.. وزوجتي.. وانتقلنا إلى الدور الأرضي من المنزل الذي نسكنه..

أتدرون أيضاً؟!

لم اعد أقرأ الصحف والمجلات..

●●●



خطاب من موسكو



أنا لست جميلة ..

وربما لو رأيتني لاعتقدت انى جميلة.. ولكن رأيك لا يهم، المهم هو رأيي أنا في نفسي.. وأنا اعتقد انى لست جميلة..

وقد صحبني هذا الاعتقاد طول عمرى، وأصبحت أؤمن بأن ليس هناك شاب يرضى بى أو يتلهف علىّ..

واحببت ..

احببت مرتين ..

وفى كلتا المرتين كان حباً صامتاً، اطويه فى قلبى، واخفيه تحت جفونى، وأحرم عليه ابتسامتى.. ولم أجرؤ فى المرتين على ان اجعل من حبى حقيقة اعيش فيها.. احتفظت به وهما.. وخيالا.. وليس أكثر من خيال..

والذى أحببته فى كل من المرتين لم يشعر بحبى.. لم ادعه يشعر به.. انما كان كل ما يشعر به نحوى هو الصداقة.. مجرد صداقة.. وكل منهما كان يصل بصداقته إلى حد ان يروى لى مغامراته مع غيرى من البنات ، أو يروى لى قصة حبه لبنت أخرى.. فأستمع له.. واتعذب، واظل اتتبعه فى حياته بقلبى المسكين إلى أن أراه يتزوج غيرى.. فأبكى وحيدة فى ليلة زفافه..

ثم ..

ثم قابلت كمال فى حفلة صغيرة اقيمت فى بيت احدى صديقاتى.. ولا أدرى كيف وجدته جالسا بجانبى يروى لى قصة حياته، ويبلغنى انه مسافر غدا إلى موسكو فى بعثة دراسية.. ربما كان فى وجهى شىء يجذب الشبان إلى صداقتى، ويصدهم عن حبى.. لا بأس.. شىء خير من لا شىء.. وإذا لم يكن الحب من نصيبى، فانى احمد الله على الصداقة..

وظل كمال بجانبى طول الحفلة، ثم فوجئت به قبل ان انصرف يسألنى:

— اقدر أبعت لك جوابات بعدما أسافر؟

ونظرت إليه كأني ابحث في وجهه عن سر هذا الاهتمام الزائد المفاجيء، بي.. ثم قلت بلامبالاة:

— ما فيش مانع ..

وسافر كمال في اليوم التالي ..

ولم يمض أكثر من اسبوعين حتى تسلمت أول رسالة منه.. ودهشت.. لم أكن اعتقد انه كان يعني ما يقول عندما طلب مني ان اسمح له بمراسلتي.. كنت اظنه يجاملني.. كنت اظنه يتكلم مجرد كلام، لعله قاله لألف فتاة قبل سفره.. ولكنه لا يستطيع ان يراسل ألف فتاة.. لا بد انه اختصني انا وحدي بخطابه هذا..

وخفق قلبي من الفرح..

كانت خفقة فرح.. وليست خفقة حب..

وفضضت الخطاب، ورعشة الفرح تسري في يدي.. وقرأت.. انه يصف لي رحلته إلى موسكو.. وحياته هناك.. ويصف المدينة.. ولا شيء أكثر من هذا.. ويرجوني أن ارد عليه..

انه خطاب اقرب إلى خطابات التعارف التي يرسلها قراء الصحف بعضهم إلى بعض، دون ان يعرفوا بعضهم بعضا..

لا بأس ..

هذا نصيبي من الدنيا ..

الصداقة .. الصداقة فقط ..

وامسكت بقلمي، وكتبت له خطاباً.. مجرد خطاب إلى صديق، حشوته بكثير من النصائح، كأني أخته أو أمه..

ووصلني الرد بعد اسبوع واحد.. كأنه كتبه في نفس اليوم الذي تلقى فيه خطابي.. المسكين.. انه لا يجد شيئا يسليه عن غربته في موسكو إلا أن يكتب لي خطاباً..

وتوالت خطاباتنا ..

ولم تكن تحمل أكثر من كلمات الصداقة.. ولكني بدأت أحس فيما يكتبه شيئا ابعد من الصداقة.. شيء وراء الكلمات.. شيء لا يفصح عنه

بصراحة.. شيء كالحب.. ربما كنت واهمة.. أو ربما كانت غربته قد استبدت به إلى حد أن أصيب بمرض « الحنين إلى الوطن » .. ولم يجد ما ينفس به عن حنينه إلا هذه الخطابات الطويلة، وهذه الكلمات الرقيقة.. كأنه يعتبرني وطنه الذى يحن إليه.. نعم.. لا بد انه هذا.. فهو يحدثني كثيرا عن ضيقه بغربته، وضيقه بموسكو.. بل إنه يفكر في تغيير بعثته إلى لندن بدلا من موسكو، ويفكر أحيانا أخرى في الاستغناء عن البعثة أصلاً، والعودة إلى القاهرة..

وكلماته تزداد رقة، وتزداد تعبيراً عن شيء ابعد من مجرد الصداقة..

وأنا حريصة على ألا اندفع وراء هذا الوهم الذى يطل علىّ من خطاباته.. كنت أكذب نفسي.. لا، ليس هذا حباً.. انه لا يمكن ان يحبني.. وكنت أصر في ردي عليه ان أظل صديقة، مجرد صديقة.. كنت أحرص على ان اختار كلمات لا تحمل أكثر من معناها اللفظي.. ولكني مع الأيام بدأت أحب الكتابة إليه.. وبدأت أحب انتظار رسائله..

ثم ..

ثم وقعت المفاجأة ..

خطاب سريع منه يقول لى فيه: «أحبك.. أحبك.. صدقيني اني أحبك.. لم أعد أحتمل ان أخفي حبي أكثر من هذا.. وقد قررت أن أعود إلى القاهرة، لأخطبك.. لنتزوج.. وإني في انتظار برقية منك بالموافقة.. سأنتظر برقيتك في كل يوم.. في كل ساعة.. في كل دقيقة.. إلى أن تصلني.. و.. ».

وكدت أجن من الفرحة..

إنها أول كلمة حب أسمعها من رجل ..

إنه أول رجل يتقدم لخطبتي..

ولم أفكر ساعتها في كيف استطاع أن يحبني وهو لم يلتق بي إلا مرة واحدة قبل سفره.. لم أفكر في شيء.. إني فرحة.. الفرحة في رأسي.. وفي قلبي.. أكاد أطير من الفرحة..

ولم أتردد ..

أرسلت له برقية من كلمة واحدة « موافقة » ..

أرسلتهـــا قبل أن أستشير أهلى .. بل قبـل أن أستشير نفسـى.. ثم درت أعلن الخبر إلى صديقـاتى.. كأنى أعلنهن بأنى أصبحت بنتا مثلهن.. ولست أقل منهن جمالا.. ولى حبيب.. وحبيبى سيأتى من آخر الدنيا ليخطبنى..

وفـرحت معـى صـديقـاتى.. إنهن يحببننى.. وكـل شىء فى يبتسـم من الفرحـة، ويكاد يـزغرد.. وشفتـاى، ووجنتاى، ومشيتى، ولفتـاتى، وهزات أصابعى..

ولكن ..

أهـلى يعارضون .. إنه لا يعجبهم .. ليس من عائلة كبيرة.. ولا غنيا.. ولا يعرفون عنه شيئا.. ولا أنا أعرف عنه شيئا..

ولكنه يحبنى ..

يريدنـى ..

ألا يكفى هذا ؟ !

ووقفت فى وجه أهلى ، دفاعـا عن فرحتى .. دفاعا عن الثقـة التى أعادها كمال إلى نفسـى.. ثقتى فى أنى فتاة مرغوبة ، يريدها شـاب..

وصرخت .. وهددت ..

وجاء كمال من موسكو .. واستقبلتـه بفرحتى .. ولم أر فيه إلا فرحتى.. ثم شغلتنا نحن الاثنين معارضـة أهلى فى زواجنا..

ولم يكن شىء فى الـدنيـا يستطيع أن يقف فى وجـه هـذا الـزواج.. كنت مستعدة أن ارتكب جريمة.. أن انتحر.. أن أهرب.. أى شىء لأتزوج كمال.

وأخيرا..

رضـخ أهلى ..

وأعلنت خطبتى، والزغاريد تملأ أذنى، وتقفز فوق وجنتى..

ثم هدأ كل شىء حولنا أنا وكمال.. وبدأنا نلتفت أحدنا إلى الآخر، ويرى أحدنا الآخر.

وفجأة وجدتنى اسأل نفسى : هل أحبه ؟

وحاولت أن أطرد هذا السؤال من رأسى، فلم يكن معقولا ـ بعد كل هذا ـ أن أشك فى حبى له.. ولكن السؤال يلح على.. ويطاردنى.

وبدأت أرقب نفسي، وعواطفي..

إن لمسة يده لا تثير فيّ شيئا.. انى أضع يدى في يده، كأنى اضعها في يد صديق.. وأحاول أن أضغط عليها، ويحاول هو الآخر أن يضغط على يدى.. ولكننا لانعتصر شيئا من هذا الضغط، أكثر من الصداقة.

وقبلته.. ان قبلته لا تنسيني نفسي.. لا انتشى بها.. انى أقبله وعقلى صاح يتساءل: هل أحبه؟! بل انى اتساءل أحيانا وأنا بين شفتيه: متى تنتهى هذه القبلة؟! وقد حاولنا في قبلاتنا كثيراً.. حاولنا ان نجمع عواطفنا فيها.. وان نطيلها.. وان نعتصر من شفاهنا شيئا.. ولكن.. لا شيء.. لا شيء..

وأخيراً، يئسنا..

عرف كل منا عواطفه نحو الآخر.

واحاطنا شعور كالهواء البارد.. وكل منا يحاول ان يفصح للآخر عما في نفسه، ثم لا يستطيع.. كان من الصعب على كلينا ان يعترف بالحقيقة.. ان أقول له، أو يقول لى، إنه ليس الحب..

وبدأ كمال يغيب عنى طويلاً ..

وبدأت لا أنتظره..

ثم بدأت أرى منه طباعاً لا أستطيع أن أتحملها.. وتصرفات صغيرة تثيرنى.. الطريقة التى يأكل بها.. ذوقه في اختيار أربطة عنقه.. و.. و.. عشرات الأشياء الصغيرة..

ولعله كان يجد فيّ نفس الشيء..

وأخيراً، قررت بينى وبين نفسي، انه لا يصلح لى..

لا أستطيع أن أتزوجه..

وربما اتخذ هو الآخر نفس القرار، في نفس الوقت..

كيف يعلن كل منا قراره للآخر؟

هل ننتظر إلى أن نتشاجر سويا، ونجعل من فسخ خطبتنا مأساة تبكينا.. لماذا لا يتم كل شيء ببساطة وهدوء، ونبقى أصدقاء؟!

وقلت له وأنا أستعين بكل أعصابي:

—— تيجى نسيب بعض يا كمال؟
وقال فى تردد كأنه يخشى ان يجرحنى :
—— انتى عايزه كده!
قلت :
—— أنا عايزة .. وانت كمان عايز!
قال وهو يبتسم ابتسامة خجلة:
—— زى ما يعجبك!
وفسخنا خطبتنا فى هدوء..
ولم اندم .. ولم أغضب منه..
كان كل شىء واضحاً فى عقلى.. ان هذه الخطبة دفعتنا إليها غربته فى موسكو.. ودفعتنى إليها أنه أول رجل تقدم لخطبتى فى الوقت الذى كنت أشعر فيه بأنى لست مرغوبة من الرجال.. لم اندم.. ورغم ذلك بكيت..
بكيت كثيراً..
وأصبح نصيبى من كمال، هو نصيبى من كل الشبان..
وعاد إلى موسكو ..
وعاد يرسل إلىّ الخطابات ..

●●●



فوتوجينيك



أنا مصور فوتوغرافى ..
بدأت هاوياً ، وانتهيت محترفاً ..
ولا أدري متى بـدأت هـوايتـي .. بل إنى لا أذكر يوماً مـن عمرى لم أحمل فيه بين يدى آلـة تصـويـر .. فقـد كـان والـدى من هـواة التصـويـر أيضا ، وكنت وانـا صغير أجـرى لأخطف آلة التصوير ، واضمهـا إلى صدرى فرحاً ضاحـكاً كأنى أضم كل ما فى الـدنيا .. وكنت إذا بكيت لا أسكت إلا إذا جاءت لى والدتى بآلة التصوير .. وإذا أرادوا أن يسقونـي «شربة» أو دواء مراً ، تحايلوا علىّ بإعطـائى آلة التصـوير .. وعنـدمـا أصبحت فى العاشرة من عمـرى ، ونلت الشهادة الابتدائية ، أهدانى والدى آلة تصوير .. كاميرا !

ومن يومها وأنا أرى الدنيا وأرى الناس ، من خلال عدسة الكاميرا ..

لم يكن مـا أراه بعينى يصلح للحكـم على الأشيـاء .. كـان الحكم دائماً لعدسـة الكاميرا .. أى أنى لو رأيت رجـلا بعينى لا أستطيع أن أحكم عليه .. لا أستطيع أن أحبه أو أكرهـه .. لا أستطيع أن أحكم على أخلاقه .. وإنما كل ما يحدث لى هو أن يثير هـذا الرجل اهتمامى أو لا يثيره .. فإذا أثار اهتمامى صوبت إليه العدسة والتقطت صـورته .. ثم انظر فى الصـورة ، ومن خلالها أستطيع أن أحكم عليه .. أستطيع أن أعـرف أخلاقـه .. أستطيع أن أحبه أو أكرهه ..

وأنت تعرف أن عدسة الكاميرا تعمل بالضبط بنفس الطريقة التى تعمل بها عين الإنسـان .. أى أن تـركيبهـا الميكـانيكى هـو نفسـه التركيب الفسيولوجى لعين الإنسان ..

ورغم ذلك ..

فإن هنـاك فارقـا بين مـا تلتقطـه عين الإنسان ، ومـا تلتقطـه عدسـة الكاميرا.. فـالمنظر الطبيعـى الذى يبـدو فى الصورة الفـوتوغـرافية ، تجده مختلفا عن نفس المنظـر إذا وقفت أمامه وتطلعت إليـه بعينيك المجردتين ..

إن فى الصورة تفـاصيل كثيرة لم تلتقطها عينـاك ، وفيها تكـامل وانسجام لا تستطيع أن تحس بهما بعينيك ، ولكن عـدسـة الكـاميرا أحست بهما .. كذلك وجوه الناس .. إن الوجه الذى تراه عيناك، يختلف عن نفس الوجه إذا التقطته آلة التصوير .. قد ترى بعينيك وجه فتاة فى غاية الجمال ، ولكنك إذا التقطتها بـالعدسة وجـدتها فى الصورة أقل جمالا.. بل قد لا تكـون جميلة أبـدا .. وهذا الاختـلاف هـو الـذى أدى إلى تقسيم وجوه البشر إلى : وجـوه « فوتوجينيك » ووجوه « ليست فوتوجينيك » !

وهـذا الخلاف بين عين الكـاميرا ، وعين الإنسـان ، قـد يبـدو ضئيـلا بالنسبة للرجل العادى ، ولكنه بالنسبة لفنان مثلى يبدو كبيرا .. كبيرا جدا !!

وقد بدأ هذا الخلاف يحيرنى منذ مدة طويلة ..

كنت أسـأل نفسـى : ما الـذى يجعل بعض الوجوه فـوتوجينيك والبعض الآخر ليس فوتوجينيك ؟ !

من الناحيـة العلمية يستطيع أى أخصائى فى التصويـر أن يقول لك أن الظـلال التى تلقيهـا مـلامح الـوجه هـى التى تـؤثر فى مـدى صـلاحيتـه للتصـويـر .. أى قد يكـون وجهك جميلا ، ولكن الظل الـذى يلقيه أنفك على وجنتيك يجعل وجهك يبـدو فى الصـورة مسطحـاً ، فيصبـح وجهك ليس فوتوجينيكياً !!

ولكن هذا الكلام العلمـى ليس صحيحا على إطلاقه ، فقد أجـريت مئات التجـارب على ظلال الـوجـه ، ورغم ذلك ظلت هنـاك وجوه فـوتـوجينيك ، ووجوه غير فوتوجينيك، حتى لو تساوت الظلال بينها !

ووجدت نفسى بعد قليل أتساءل :

أيهما أصدق .. عين الإنسان أم عين الكاميرا ؟!

إن كـلا منهما يـرى نفس الشىء رؤيـة مختلفـة ، فأيهما أصـدق فى رؤياه .. هل ما نراه بأعيننا هو الحقيقة ، أم ما تراه عين الكاميرا ؟

وحيرنى السؤال ..

عشت شهوراً طويلة حائراً ..

ثم ..

وجدت الاكتشاف العلمي الضخم .. وجدت الجواب ..

إن عين الكاميرا أصدق من عين الإنسان !

لا تندهش ..

ولكن ، اسألنى : لماذا ؟

والمسألة بسيطة ..

إن عين الإنسان تتعرض لمؤثرات كثيرة .. تتعرض للعاطفة .. فإن عواطفك تؤثر فى عينيك ، فترى الشخص الذى تكرهه دميما .. وترى الشخص الذى تحبه جميلا ، وبيت الشعر الذى يقول « وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، ولكن عين السخط تبدى المساويا » ، ليس مجرد بيت شعر ، إنه نظرية علمية !!

كما أن عين الإنسان تتعرض لمؤثرات الجنس ، فالرجل قد يرى المرأة الجميلة لمجرد أنها امرأة ، أو لأنه يشتهيها .. كما تتعرض لمقتضيات المصلحة الخاصة كما يصورها لك العقل .. فإذا كنت محتاجا لرجل فإنك غالبا ما تراه إنسانا سمحا ينطق وجهه بخفة الدم حين أنه قد يكون سمجا ثقيل الدم ، و .. و ..

هذه هى عين الإنسان ..

عين لا يمكن أن تكون صادقة .. لأنها عين ليست منزهة ، وليست محايدة ، إنما هى عين أسيرة بين قلب الإنسان وعقله .. أسيرة الأهواء !

ولكن ..

عين الكاميرا ليست كذلك ..

إنها عين نزيهة .. محايدة .. متحررة من الأهواء .. عين لا تخضع لعاطفة ، ولا لشهوة جنسية ، ولا لمصلحة خاصة ..

إنها عين صادقة ..

إن ما تراه الكاميرا حقيقة قاطعة ..

وما يراه الإنسان حقيقة مشكوك فيها ..

ولكن ..

هناك سؤال أعمق .. وأخطر !!

هل الفرق بين ما تراه عين الإنسان ، وما تراه عين الكاميرا ، هو مجرد فرق في الشكل .. في المظهر الخارجي .. أي هل كان الفرق ينحصر في أن الوجه الذي تراه عين الإنسان جميلا ، قد يبدو في الصورة الفوتوغرافية أقل جمالا ؟

أم هو فرق في الحقيقة التي تختفي خلف الوجه .. حقيقة الشخص نفسه .. أخلاقه .. طباعه .. نياته ؟!

وبمعنى آخر ؟!

هل تلتقط الكاميرا صورة الوجه فقط ، أم تلتقط مع الوجه صورة الأخلاق والنيات ؟؟!

سؤال خطير !!

ولكنى وجدت الجواب ..

والجواب هو أن الكاميرا تلتقط أيضا صورة الأعماق .. صورة أخلاق كل من يقف أمامها .. فأنت ـ أو على الأصح ، أنا ـ أستطيع أن أعرف أخلاق الشخص من صورته الفوتوغرافية .. بل إنى لا أطمئن إلى شخص إلا بعد أن ألتقط صورته وأدقق فيها لأعرف أخلاقه .. ونياته !!

وكثيرا .. كثيرا جدا .. يحدث أن تلتقى بشخص وترتاح إليه ، وتطمئن إلى نياته ، ولكنك إذا التقطت صورته ، ودققت النظر فيها ، وجدت ملامحه تنطق بالخبث ، والجشع ، وسوء النية .. وعليك في هذه الحالة ، أن تصدق عين الكاميرا ، ولا تصدق عينيك ، لأن عينى الإنسان ـ كما قلت لك مشكوك في صدقها ..

وأصبحت هذه نظريتى في الحياة ..

أرى الناس والأشياء من خلال عدسة الكاميرا ، وأحكم على الناس والأشياء كما تحكم عليهم الكاميرا .. حتى أنى قررت يوما أن أشترى سيارة مستعملة وكان صاحبها يبدو صادقا طيبا حسن النية ، ولكنى رغم إحساسى بصدقه وطيبته صممت قبل أن أشترى السيارة على أن ألتقط له صورة .. ودققت النظر في الصورة، فإذا به يبدو خبيثا ، كاذبا ، سيىء النية، وكان وجهه طبعا ليس «فوتوجينيك» .. ولم أشتر السيارة .. وحمدت

الله لأنى لم أشترها ، فقد اشتراها صـديق لى ، وتبين له ، بعد أن اشتراها أن « الأكس » مكسور وملحوم .. وضاع عليه الثمن الذى دفعه !!

وكنت سعيداً باكتشافى ..

كنت أسير فى الحياة ، وفى يـدى عدسـة سحـرية تطلعنـى على خبايـا النفوس .. عدسة الكاميرا !!

إلى أن التقيت بسعاد ..

ورأيت سعـاد مـن النظـرة الأولى .. جميلـة .. رائعـة .. وجهها يتعلق بالبراءة .. وعينـاها تشعان بذكـاء طيب هادئ .. وابتسـامتهـا تطرق قلبك بحنان غريب .. وشعرها منسدل على كتفيهـا فى راحة ، كأنه منذ ولدت نائم فى مكانه لم يوقظه أحد ..

رأيتها كما أرى حلما عشت فيه عمرى كله ..

ولم تسنح لى فـرصة لتصـويرهـا لأسـابيع طويلة .. ولكنى لم أكن فى حاجـة إلى تصويـرهـا .. كانت صـورتها تزداد وضوحـاً فى عينى يومـا بعد يوم .. وحـديثها الشيق يقودنى إلى أعماقها .. أعماق من النـور .. نور ومن تحته نور ..

وأحببتها ..

أحببتها إلى حـد أنى كنت أنسى الكاميرا ، وأنا بجانبهـا .. نعم .. إلى هذا الحد أحببتها !

ثم ..

التقطت لها صـورة .. بعين الكـاميرا .. ولم ألتقـط صـورتها لأنى كنت أريد أن أعـرفها أكثر .. لا .. فقد كنت واثقـا من أنى لست فى حاجة لأعـرفـها أكثر ..

وذهبت إلى معملى ، وحمضت الصورة ، ثم أضـأت النـور ، ونظرت إليها وأنا مطمئن النفس .. واثق من النتيجة ..

ولكن ..

ما هـذا ؟!

إنها ليست فوتوجينيك !!

إن وجهها يبدو مسطحا .. باهتا .. وابتسامتها تبدو مفتعلة .. وفى عينيها خبث .. وبشرتها تبدو خشنة كأنها بشرة فتاة أنهكتها التجارب ..

لا .. لا يمكن .. لا بد أن شيئا حدث وأنا ألتقط لها هذه الصورة ..

والتقطت لها صورة أخرى .. وثانية .. وثالثة .. عشرات الصور .. فى أوضاع مختلفة .. ومن زوايا مختلفة .. وعكست عليها النور من جميع الجهات .. وصوّرتها دون أن تدرى .. وصورتها وهى تدرى .. و ..

والنتيجة واحدة ..

إنها ليست فوتوجينيك ..

إن عين الكاميرا لا تريد أن ترحمها ..

عين الكاميرا لا تريد أن تكذب ..

ولكن ، من قال إن عين الكاميرا أصدق من عين الإنسان ؟!

ما هذه النظرية السخيفة التى ابتكرتها ، وآمنت بها !

كيف أجعل هذه الآلة الصماء - الكاميرا - تتحكم فى منطقى ، وفى حكمى على الأشياء والناس ، ثم أتركها تتحكم الآن فى عواطفى ..

لا ..

هذه نظرية جوفاء ..

هذه سخافة ..

إنى أحب سعاد .. والحب هو الحقيقة .. الحب هو الصدق .. الحب هو حياتى !!

وهجرت الكاميرا ..

تركتها ..

لم أعد أرى الدنيا من خلال عدستها ، بل لم أعد ألتقط بها صورا ..

تركت مهنة التصوير الفوتوغرافى ..

كل ما فعلته قبل أن أهجر الكاميرا والتصوير .. هو أنى جئت بإحدى صور سعاد ، وأجريت فيها بيدى رتوشا كثيرة ، حتى بدت جميلة .. جميلة جداً ..

وأهديتها الصورة ذات الرتوش ..
الصورة المزورة ..
ثم تزوجتها ..

* * *

أتدرى ماذا حدث ؟!
بعد سنة ، طلقت سعاد ..
لقد كانت عين الكاميرا ، أصدق من عين الإنسان ..
وعدت إلى الكاميرا ..

● ● ●



قمة الجبل



لم أكن قد زرت بلدة « سيرميوني » من قبل ، ولا سمعت باسمها ، رغم كثرة رحلاتي إلى إيطاليا .. ولكني وجدت نفسي فيها مصادفة وأنا أقطع الطريق بالسيارة من فينيسيا إلى ميلانو ..

إنها قطعة من الجبل ممتدة داخل بحيرة «لاجو ديلاجاردا» .. والجبل تغطيه أشجار الصنوبر العالية.. وظلال الأشجار تستحم في مياه البحيرة.. والبلدة هادئة.. وشوارعها ضيقة عتيقة كأنها صفحة من التاريخ، وكل شيء يبتسم في دعة، البحيرة تهمس، والشجر يهمس، والناس يهمسون.

وأحسست بشيء يقيدني إلى سيرميوني.. ربما كان حاجتي إلى الراحة والهدوء.. ربما كانت القمم العالية التي تحيط بي.. ربما كانت حلاوة المفاجأة وأنا ألتقي بقطعة من الجنة.

وركنت سيارتي، وحجزت لنفسي حجرة في فندق أقيم فوق قمة الجبل ربما كان أفخم فنادق البلدة.. ثم نزلت أطوف بالشوارع الضيقة المرصوفة بقطع الأحجار الصغيرة.. والهدوء يسري في أعصابي.. وابتسامة كبيرة تملأ قلبي.. ثم جلست في مطعم صغير.. وشمس الربيع تغمرني.. والبحيرة تحت أقدامي.. والجبل الأخضر يطل عليّ.

كنت سعيدا.. سعيدا.. لا أريد شيئا أكثر من ذلك.

والمطعم الصغير ليس معدا للسياح.. إن كل زبائنه من الإيطاليين.. وكلهم من الطبقة المتوسطة البسيطة.. وأخذت أدير عيني بينهم كأني أتعرف على زملائي في الجنة.. زملائي الملائكة.

وسقطت عيناي على فتاة جالسة مع شاب على مائدة مجاورة.. الفتاة فيها كل الجمال الإيطالي.. العينان السمراوان الواسعتان.. والحاجبان الكثيفان والشفاه الواسعة الغليظة.. والقامة القصيرة الممتلئة.. وكانت

تلبس البنطلون والبلوز.. ولفت نظرى فيها جلستها.. إنها تجلس غاطسة فى المقعد.. كأنها تحتمى به.. أو كأنها تكاد تسقط من فوقه.

أما الشاب الذى معها فكان أشقر الشعر.. صارم التقاطيع.. فى نظراته غطرسة.. قوى العضلات.. قوى جداً.. وكانت عيناه مسلطتين على وجه الفتاة دائما.. لا يرفعهما عنها.. وبين شفتيه ابتسامة فيها إصرار، كأنه يحاول أن يسلب إرادتها بابتسامته.. وهى تتجاهل نظراته حينا.. وتغطس فى مقعدها أكثر.

وكان يبدو أنهما لا يتحدثان لغة واحدة.. إنى أسمعه يتحدث الألمانية، وأسمعها تتحدث الإيطالية.. وكل منهما لا يعرف لغة الآخر، فيحاولان التفاهم بالإشارات وببضع كلمات ممزقة.

وابتسمت عيناى، وأنا أتخيل الحديث الذى يمكن أن يدور بينهما والقصة التى يمكن أن تجمعهما.

وقبل أن أدير وجهى.. رفعت الفتاة عينيها والتقت بعينى..

وأرخيت عينى بسرعة..

ولكن جلستى كانت فى مواجهتها.. ولم أكن أستطيع أن أتفادى الالتقاء بعينيها مرة أخرى.

ثم ..

ثم خيل إلىّ أنها تبتسم لى.. ابتسامة سريعة، ثم عادت بعينيها إلى الشاب الألمانى الذى يجلس معها وظهره إلىّ..

ولم أرد ابتسامتها..

إنى لا أريد..

كل ما أريده هو الراحة والهدوء..

ولكنها ابتسمت لى مرة أخرى، ابتسامة واسعة.. ثم غطست فى مقعدها أكثر..

وتجاهلت أيضا هذه الابتسامة.

ولكنى لم أستطع أن أتجاهل الابتسامة الثالثة.. ورغما عنى، ارتفعت إلى شفتى ابتسامة حائرة مترددة.

وفجأة قام الرجل الألمانى من جانبها واختفى داخل المطعم.. والتفتت الفتاة إلىّ بكل جسمها، وابتسامتها تملأ وجهها.

وتعجبت .. وخفت .. خفت على هدوئى وراحتى.. ولكن حيائى منعنى من أن أتجاهل ابتسامتها.. فابتسمت لها، وظلت عيناها السمراوان معلقتين فوق وجهى، وفيهما نظرة عجيبة.. ليست نظرة إعجاب على كل حال.. ووجدت نفسى – تحت إلحاح هذه النظرة – أحرك شفتى وأقول كلاما.. أى كلام.. وتكلمت بصوت خافت، لايمكن أن تسمعه.. ولكنها ما كادت ترى شفتى تتحركان، حتى قفزت من فوق مقعدها، وجاءت إلى مائدتى ووقفت فوق رأسى، وقالت كلاما باللغة الإيطالية لم أفهم منه شيئا.

ووقفت احتراما لها ، وقلت الكلمتين الإيطاليتين اللتين أعرفهما:

— هل تتكلمين الإنجليزية؟

— لا ..

— الفرنسية ؟

— يوكو (أى قليلا) ..

وبدأت أحدثها بالفرنسية.. وكان ما تعرفه منها أقل مما أعرفه من الإيطالية.. ولم يكن هناك شىء يمكن أن تقوله لى، ولكن كان يبدو أنها مصرة على أن تتحدث إلىّ ، فظلت واقفة، تبذل مجهودا كبيرا فى الاحتفاظ بابتسامتها، وتبذل مجهودا أكبر فى البحث عن كلمة تقولها، ويمكن أن أفهمها..

وبعد ذلك ، كان علىّ أن أدعوها للجلوس معى..

وبسرعة ، وبلا تردد ، قبلت دعوتى.. وشدت حقيبتها من فوق المائدة الأخرى التى كانت تجلس إليها.. و.. جلست بجانبى.. وأحسست بها تتنهد بمجرد أن جلست.. تتنهد فى راحة.. كأنها وصلت.. ولم تجلس غاطسة فى مقعدها، بل جلست معتدلة، وعيناها هادئتان.

وعرفت اسمها: ليديا.

ودار بيننا الحديث الذى يدور عادة بين غريبين لا يعرف كلاهما لغة

الآخر، وضحكنا كثيرا وهي تحاول أن تفهمني ما تقول باللغة الإيطالية، وأنا أحاول أن أفهمها بالفرنسية.. وشعرت وهي قريبة مني أنها ليست من هذا الصنف من البنات الذي يصطاد السياح.. لم تثر فيّ أي رغبة في مغامرة.. ولم تشجعني عليها.. بالعكس.. كان كل ما فيها يثير الاحترام.. والطيبة.. وفوق صدرها صليب ذهبي صغير، تلمسه بأناملها بين الحين والحين.

وفجأة أيضا، برز الشاب الألماني من داخل المطعم.

ولمحت سحابة حمراء تطوف فوق وجه ليديا.. ورأيتها تتشبث بيديها في مسندي المقعد، ثم تغطس فيه، وتميل ناحيتي كأنها تحتمي بي.

ووقف الشاب الألماني ينظر إلينا بعينين باردتين كالثلج.. ثم اقترب منا في خطوات ثابتة ووقف فوق رأسينا.. وسلط عينيه عليّ وبين شفتيه ابتسامة لزجة لا معنى لها.

ولم استرح له.. شعرت بالتقزز منه، ورفضت أن أدعوه إلى الجلوس، أو أصافحه، ولكن ليديا رفعت إليه عينين مرتعشتين، وأطالت النظر في جلستها نحوي كأنها تحتمي بي.. ثم التفتت إليّ وقالت بصوت خفيض تقدمه لي:

— رينهارت..

وكنت مضطرا بعد ذلك أن أصافحه وأن أدعوه إلى الجلوس، فجلس وهو يحاول أن يتودد إليّ بابتسامة كبيرة، ودار بيننا حديث عجيب، بين ألماني وإيطالية وعربي، والألماني يعرف بضع كلمات إنجليزية.. والإيطالية تعرف بعض كلمات فرنسية.. والعربي - أنا - يتكلم الإنجليزية والفرنسية فلا يفهم الآخران من اللغتين شيئا.. وأراد رينهارت أن يتغلب على صعوبة الأحاديث بيننا فأخذ يعرض علينا بعض ألعاب المائدة.. ألعاب سمجة!

وحان وقت الغداء.. وطلب كل منا غداء.. وأصرت ليديا على ألا تأكل شيئا من اللحم..

وسألتها..

— لماذا ؟

قالت كأنها تتهمنى بالكفر :

— إننا فى يوم الجمعة .. واللحم يوم الجمعة حرام ؟!

ودهشت .. دهشت أن أجد فتاة ترتدى البنطلون والبلوزة.. ومتدينة إلى هذا الحد.

وبعد الغداء دعوت ليديا لتناول الشاى فى حديقة الفندق الذى أقيم فيه.. فوق الجبل.. وقبلت فورا.. ثم ترددت قليلا.. وقالت فى حياء:

— ورينهارت..

واضطررت أن أدعو رينهارت أيضا.. وركبنا سيارتى، وصعدنا الجبل ورينهارت يتحدث طول الطريق عن السيارة، ويتحسس أجزاءها.. ونظرته الباردة تضج بالسخط.. ثم يلتفت إلى ليديا ويسكب عليها هذه الابتسامة التى يحاول أن يسلب بها إرادتها.

وجلسنا فى حديقة الفندق نتناول الشاى.. وأنا أرقب الاثنين وأحاول أن اكتشف العلاقة التى تربطهما.. ورينهارت لا يزال يسكب ابتسامته على ليديا.. وليديا تنظر إلى عضلات ذراعيه، وعضلات صدره، كأنها تشهق بعينيها.

وانتهى الشاى..

وكان يجب أن يعتذرا وينصرفا.. ولكن ليديا ظلت ساكتة.. وبدأت الشمس تغيب.. وفجأة قال رينهارت فى حدة:

— أظن يجب أن ننصرف.

وقالت ليديا كأنها فزعت :

— لا .. لا .. لنبق قليلا !

وقال رينهارت وهو أكثر حدة :

— إذن .. سأنصرف أنا !

وقالت ليديا فى توسل :

— لا .. ابق قليلا ..

ثم التفتت إلىّ وقالت بسرعة :

— إن هناك مرقصا فى آخر البلدة، هل تريد أن تذهب إليه الليلة؟

ونظرت إلى الاثنين فى دهشة، ثم قلت بلا مبالاة :

— لا مانع ..

ولم أكن أريد أن اذهب إلى المرقص، والواقع أنى لا أجيد الرقص، ولا أحبه.. ولكن كان هناك شيء يجذبنى إلى هذين الاثنين..

وتهلل وجه ليديا فرحا عندما وافقت على الذهاب إلى المرقص.

وانكمش وجه رينهارت..

وقلت لليديا :

— يستحسن أن تذهبا الآن إلى فندقكما لتغيرا ثيابكما.. وسألحق بكما بعد أن أغير ثيابى !

وقال رينهارت :

— حسنا ..

وهَبَّ واقفا ..

ولكن ليديا صاحت فى فزع وإصرار :

— لا .. لا .. إن السيد يستطيع أن يصعد الآن ليبدل ثيابه، وسننتظره هنا.. وبعد ذلك نمر على فندقنا فى طريقنا إلى المرقص.

ونظر إليها رينهارت فى سخط..

ووافقت أنا ، وصعدت إلى غرفتى والدهشة تملأ رأسى..

إن ليديا تصر على أن أبقى معهما.. وهى تصر أيضا على أن يبقى رينهارت معنا.. إنها تحتمى بى منه ولكن مم تحتمى.. ماذا يخيفها منه.. ثم إذا كانت تخافه فلماذا لا تتخلص منه ، وقد أعطيتها أكثر من فرصة لتتخلص منه.

وعدت إليهما.. ولمحت ليديا تسحب يدها من يد رينهارت بمجرد أن رأتنى، ثم ركبنا السيارة، وعلمت فى الطريق أنهما يقيمان فى فندق واحد.. وأنهما التقيا بالأمس فقط.. وأن ليديا تعمل موظفة فى بنك مدينة «فرارا»

إحـدى مـدن الـريف الإيطـالى، رغم أنها تحمل شهـادة فى التـدريس.. وأن رينهـارت عامـل فى أحد مصـانع ميـونخ بألمانيـا، وقـد جاء فى أجـازة إلى سيرميونى، راكبا موتسيكل.. وسيعود إلى ميونخ غدا.

وانتظرتهما أمـام الفندق إلى أن غيرا ثيـابهما.. وعندمـا نزلت ليـديا من الفندق، اتجهت إلى تمثـال للسيدة العذراء معلق فى حائط بيت ومـوقد تحته شمعتـان، وركعت تحت أقـدام التمثـال نصف ركعـة، ورسمت عـلامة الصليب على صدرها.. ثم ركبت السيارة.

وفى المرقص ، لم أراقص ليديا.. تركت كل الرقصات لرينهارت.. وأخذت أرقبهما من بعيـد.. وقد راقصتـه ليـديا أول رقصـة مبتعـدة عنه .. وكـان يحاول أن يقـربها منه .. فكـانت تقاوم.. وفى الـرقصة الثـانية اقتربت منـه بعض الشىء.. ثم اقتربت أكثـر فى الرقصـة الـرابعة.. ثم أصبـحت تـرقص وهى ملتصقة به، ورأسها مائل على كتفه، وخدها على خده.

وبعد الرقصة الخامسة عادت ليديا إلى المائدة وهى تسير كأنها فى حلم.. عيناهـا مكسرتان، وشفتاهـا منفرجتـان.. وخطواتها ضعيفة.. ومـا كادت تلقى بنفسها على المقعد، حتى صاح رينهارت:

— هيا بنا إلى الفندق..

ومالت ليديا ناحيتى وقالت فى فزع :

— لا .. لا .. لا يزال أمامنا كثير من الوقت ..

وقال رينهارت وهو يسكب عليها نظرته :

— يجب أن نعود ..

والتفتت ليـديـا إلىّ كأنها تستنجـد بى.. ثم عـادت تلتفت إلى رينهـارت قائلة:

— أرجوك .. لنبق قليلا .. تعال ارقص هذه الرقصة أيضـا..

وراقصها رينهـارت مرة أخرى.. وعندمـا عاد بها كان يبـدو أنها فقدت كل مقـاومتهـا.. وحملت حقيبتهـا فى صمت.. وقمت معهما لأوصلهما إلى الفندق..

وطوال الطريق كنا صامتين نحن الثلاثة.. وكنت أستطيع أن ألمح ذراعي رينهارت ملتفة حول كتف ليديا، وخدها نائم فوق عضلاته.

ووصلنا الفندق..

ونزلا من السيارة..

وشكرتني ليديا بكلمة خافتة ضعيفة، لم أسمعها، وصافحني رينهارت وشكرني باللغة الألمانية.

وبقيت داخل السيارة أشعل سيجارة، وانظر خلفهما وهما متجهان إلى باب الفندق.

و..

لم تكد ليديا تصل إلى باب الفندق، حتى استدارت والتفتت إليّ وصرخت :

— انتظر ..

ثم جرت وحدها نحوى.. وقفزت داخل السيارة بجانبي، وهي تقول :

— إني أريد أن أشرب فنجان قهوة ، خذني إلى أي مكان أشرب فيه قهوة..

قلت في دهشة :

— ورينهارت ..

قالت كأنها تأمرني :

— دعه .. أرجوك .. أسرع ..

وانطلقت بالسيارة، ورينهارت واقف ينظر إلينا في غباء ، ويسكب علينا نظراته الباردة !

●●●

وعدت بها إلى بهو الفندق الذي أقيم فيه.. وطلبت لها القهوة..

والساعات تمر، وهي لا تتحرك ، صامتة ، شاحبة ، أناملها تحتضن الصليب المعلق فوق قلبها.

وبدأت أشعر بالتعب .. والملل.. وتثاءبت .. فلم تلحظ حاجتي إلى النوم.. وقلت لها بصراحة:

— إنى تعب ..

قالت فى رجاء :

— إنى أريد فنجانا آخر من القهوة !!

ثم ..

نظرت فى ساعتها المعلقة فى معصمها، وقالت كأنها تحادث نفسها :

— الساعة الخامسة.. إن رينهارت الآن فى طريقه إلى ميونخ..

ثم قفزت واقفة ، واستطردت :

— سأعود إلى الفندق .. شكرا !

●●●

وفى اليوم التالى خرجت من الفندق ونزلت إلى شوارع البلدة الضيقة، والتقيت بليديا صاعدة، ولم تتوقف ؟ إنما أحنت لى رأسها من بعيد، وابتسمت لى ابتسامة ملأت شفتيها وعينيها، ولوحت لى بيدها، وصعدت إلى القمة.. قمة الجبل.



هـبة لاثنين



إن كل لقــاء بين أى فتــى وفتــاة، يبــدأ بــالأمل.. الأمل فى لقــاء آخــر.. الأمل فى حب.. الأمل فى زواج.. الأمل فى أى شىء.. ماعدا أنا..

فكل لقـاء بينى وبين أى فتـاة يبدأ بـاليأس.. اليأس من كل شىء!

وأنــا مهندس جيولـوجى فى إحدى شركـات التعدين.. ومقـر عملى فى شبه جـزيرة سينـاء. هناك فى المناجم.. فوق قمة الجبل.. بعيـداً.. بعيـداً عن الحياة.. وكنـت أزور الحياة مـرة كل شهـرين. فأنزل من فوق الجبل، وأسافر إلى القاهرة،وأقضى فيها يومين، ثم أعود إلى الجبل.

وخــلال هذين اليـومين كنت ألتقى بفتيات.. كنت ألتقى بهن بين أفـراد عـائلتى.. وفى النادى.. وكثيرات منهن أثـرن اعجـابى.. وبعضـهن خفق لهن قلبى.. وكنت أهم أحيانـا بأن انساق فى الحديث مع واحـدة منهن.. وأتقرب إليها.. و.. اغازلها.. ولكن ما جدوى الحديث.. وما جدوى الغزل.. انى عائد غداً إلى الجبل.. غدا لن استطيع أن أتم حـديثى معها.. لن أستطيع ان أتصل بها بالتليفـون كما يفعله بقية الشبـان.. لن استطيع أن احدد معها مـوعداً للقاء.. سأبتعد عنها إلى حيث لا أراهــا، ولا ترانى.. سأغيب عنهـا شهرين، ومن المستحيل ان أطلب من فتاة قابلتهـا لأول مرة، ان تنتظرنى شهرين إلى أن أعود وأتم حديثى معها. مستحيل!

وكـان هــذا الاحساس بـاليأس.. يجعلنى أجلس بين البنات صـامتـاً منطويا، انظر اليهن نظرات مختلسة.. وانتهد.. تنهيدة اليأس!

ثم كنت أعـود إلى الجبل، وفى رأسى صـور للبنات الـلاتى التقيت بهن فى القاهرة.. أتصـورهن وكل منهن لها شاب يلاحقهـا، ويغازلها، ويحدثها فى التليفون.. وكل منهن تخرج إلى لقـاء.. وأنا.. أنا لا نصيب لى فى كل هــذا.. أنا

اليأس.. وكل نصيبى من الأمل هو ان أفـوض والدتى فى ان تخطب لى احدى البنات.. واتـزوجها بلا حـديث، وبلا غزل، وبـلا حب.. ثم احملها معى إلى الجبل، كما احمل حقيبة ثيابى.. وأنا لا أريد ان اتزوج مثل هذا الزواج.. لا.. أنا أريـد فتاة أفهمها وتفهمنى،واحبهـا وتحبنى، قبل ان نتزوج.. ولا أمل لى فى التفاهم ولا فى الحب..

وكنت فى الجبل أحـاول أن اعـوض نفسى عن بنـات القـاهـرة، ببنـات خيالى.. كنت أقص صـور الممثلات والنساء من المجـلات الأجنبية، واغطى بها جدران حجـرتى.. واستلقى فى فراشى وآخـذ فى التحدث إلى صـاحبات الصـور.. كنت احـدثهن بصوت عـال مسمـوع.. انظـر إلى صورة مـارلين مونرو، وأقول لها:

ــــ أنا زعلان منك يا مارلين .. كده تسيبينى لوحدى!

وانظر إلى صورة جينا لولو بريجيدا، وأصيح فيها بصوت غاضب:

ــــ إيـه ده يـا جينا .. ايـه الحاجـات اللى بتعمليهـا دى.. لازم تحترمى نفسك!

ولكن ..

لم يكن هذا يكفى ..

كان يجب ان انفس عن الطاقة العاطفية الهائلة التى تعتلج فى قلبى..

كان يجب أن أحب ..

ان احب حباً يعطينى ويأخذ منى..

وأحببت ..

أحببت المنجم .. والجبل..

صـدقنى لقـد احببتهما.. حبـاً فيه كل عنـاصر الحب.. فيـه الشـوق.. والغيرة.. والفرح.. والغضب..

كنت أقوم من النـوم ملهوفا إلى رؤية المنجم.. واهـرع إليه.. كأنى ذاهب إلى لقـاء حبيبتى.. واتطلع إليه، وألمس أحجـاره.. كأنى اتطلع إلى حبيبتى وألمس وجههـا.. وكنت أغـار عليـه من العمال ومن زمـلائى المهنـدسين..

وأغضب وأثـور إذا اخطأ واحد منهم فى حقـه.. ثم كنت اتلقى المعدن الـذى يخرج منه كأنى اتلقى هدية حبيبتى..

وفنيت فى حبى..

كنت أعرف كل شبر فى المنجم.. وكل حجر فيه.. وكنت أعرف كل شبر فى الجبل، وكل قطعـة منـه.. أعـرف هضبانـه ووديـانـه.. أعـرف ما فـوقـه وما تحته.. وأعرف أهله وسكانه، وكل قدم تخطو عليه..

ثم كنت أعود فى المساء.. واغتسل.. واحلق ذقنى.. وأرتدى أفخر ثيابى.. ثم اجلس لأتنـاول عشائى، وصـور المنجم والجبل فى خيالى، كأنى اتنـاول عشائى مع حبيبتى..

ومر عامان، منحتنى الشركة خلالهما أكثـر من علاوة، وأكثر من ترقية، مكافأة على عملى.. على حبى.. وصدقنى انى لم أكن أفـرح بالعلاوة والترقية قدر فرحتى بحبى.. قدر فرحتى بالهدية التى يمنحها لى المنجم كل صباح..

ثم..

ثم نزلت من الجبل، وسافرت إلى القـاهرة.. وذهبت إلى النـادى.. وقدمنى صـديق إلى بثنية.. وجلسنـا نتحدث، حـديثاً هـادئاً.. وأنا أنظـر إليها هـذه النظـرات المختلسة المليئـة بـاليأس.. انها جميلـة.. هذا النـوع من الجمال الهادىء الـذى تحترمه أكثـر مما تشتهيـه.. وتنهدت.. تنهيـدة اليأس.. ثم ما لبث صـديقى ان انسحب وتركنـا وحدنا.. ووجـدت نفسـى ـ بـلا تعمد منى ـ احـدثها عن المنجم وعن الجبل. كنت اتحدث بحماس وتـدفق.. كأنى ابثها حبى.. ربما كنت فعلاً ابثها حبى..

ورفعت عينى إلى عينيهـا اثنـاء الحديث، فـوجـدت فيهما نـوراً.. كأنها تشـاركنى حماسى. كأنها تشـاركنى حبـى للمنجم والجبل.. كأنها تعيش حياتى!

وتـوقفت عن حـديث المنجـم والجبل، وقلت لها بجـرأة لا أدرى من أين واتتنى:

ـــ اسمعى .. أنا مسافر غـداً صباحاً إلى الجبل.. ويجب ان أقول لك كل

شيء الآن.. اني احس انني مرتبط بك.. لا أدري، قد يكون حباً.. وقد يكون شيئاً آخر.. ولكني متأكد من احساسي بأني مرتبط بك.. قد يكون غريباً ان أحس بهذا الاحساس، ونحن لم نلتق إلا الآن.. ولكن هذا هو ماحدث.. فإذا كنت تشعرين نحوي بنفس الاحساس.. فاني سأعود بعد شهرين.. في يوم ٥ أكتوبر.. وسأحضر إلى هنا في الساعة الخامسة وسأجلس على نفس المائدة.. أرجو ان أجدك!

ثم قمت فجأة، وصافحتها وانصرفت.. وهي لا تزال تنظر إليّ ، وفي عينيها نور، وبين شفتيها ابتسامة..

وعدت إلى الجبل ..

وقضيت شهرين في قلق .. كنت ادخل المنجم واسأل أحجاره عن بثينة.. واتطلع إلى قمم الجبل واسألها عن بثينة.. وادخل حجرتي وانظر إلى صور الممثلات المعلقة فوق الجدران واسأل كل واحدة منهن عن بثينة.. وكنت أحيانا اتصور أنها في انتظاري.. وأحيانا اتصور انها نسيتني وسخرت من حديثي إليها.. ثم خيل إليّ مرة انى اخونها مع صور الممثلات المعلقة فوق جدران غرفتي، فامسكت بهذه الصور ومزقتها كلها..

و ..

وخيل إليّ ان المنجم والجبل قد غضبا مني.. كأنهما يغاران من بثينة.. إن الهدية التي اتلقاها من المنجم كل يوم قد نقصت.. لعله غاضب فعلاً.. ولكن ماذا أفعل.. انه إحساس أقوى من إرادتي..

ومر الشهران..

وعدت إلى القاهرة ملهوفاً.. في نفس التاريخ.. وفي نفس الموعد، ذهبت إلى النادي..

ووجدتها ..

وفي عينيها نور، وعلى شفتيها ابتسامة هادئة..

واتصلت بمركز الشركة في القاهرة وحصلت على أجازة خمسة عشر يوماً..

ثم ..

عدت إلى الجبل ..

وعادت معي بثينة ..

إن زوجتي تدخل معـي المنجم كل صباح، وهي ترتـدي بنطلونـاً وحذاء كالذي يرتديه العمال.. وهي تحب المنجم.. ان الهدية التي يسخو بها علينا كل يوم، قد زادت.. أصبحت هدية لاثنين..

●●●



أين يقف الله



أبى رجل صعب..
وأمي مريضة..
وحبيبى رائع
وأنا في الثامنة عشرة من عمرى.. أخاف أبى، وأشفق على أمي، وأحب حبيبى..

ولم أكن أخاف من أبى على نفسى.. ولكنى كنت أخاف منه على أمي.. لم أكن اهتز عندما يسبنى ويصرخ في وجهى ولم أكن أتألم عندما يضربنى.. أحيانا بيده، وأحيانا بالشلوت، وأحيانا بالشبشب.. إنى أعرفه.. أعرف عقليته الرجعية، ونزعة السيطرة التى يفرضها علينا، وعناده، وانانيته.. وقد ورثت عنه العناد، فعودت نفسى من صغرى على الاستهانة به، والسخرية من عقليته.. ولكنه لم يكن يصب غضبه وقسوته علىّ وحدى.. كان عندما يغضب منى أو من أخى، أو من خادمتنا عزيزة، يخص أمي بالجانب الأكبر من ثورته.. يستدير إليها وهى راقدة في فراشها.. مشلولة.. وتنطلق الألفاظ القاسية من تحت شاربه كالرصاص.. ألفاظ تقتل.. وأرى وجه أمي يمتقع.. كأنها ستموت.. وشفتيها ترتعشان كأنهما تلفظ أنفاسها.. ورموشها تهتز فوق نظرة هلع.. فأخاف عليها.. أتألم لها.. ثم أراها تمد يدها الهزيلة وتلتقط يد أبى الواقف أمامها منفوشا كالديك الرومى.. وتقبلها.. وهى تقول في صوتها الممزق :

— معلهش يا حسنين.. المسامح كريم يا خويا.. حقك على .. ما تعكرش دمك !

وأكره أبى..
وأخاف منه..
أخاف منه على أمي..

ومن أجل الخوف كنت أطيعه، وكنت أتملقه، وكنت أرضخ لسيطرته.. ولم يكن يسمح لى بالخروج وحدى.. ويحتفظ بآلة التليفون في دولابه الخاص ويغلق عليها بالمفتاح، ولا يخرجها إلا إذا أراد هو ان يتحدث.. ويحرم على أن ألبس حذاء بكعب عال، أو أضع الأصباغ علىّ وجهى، أو

أذهب إلى الحلاق لأساوى شعرى.. رغم أنى فى الثامنة عشرة من عمرى..

ومن خلف كل هـذه القضبان التـى زرعها أبى حـولى .. أحببت.. أحببت أحمد.. وكبر الحب فى قلبى حتى أصبح أقوى من القضبان.. وبدأت أتحايل لأخرج للقاء أحمد !

وأبى رغم جبروته.. رجل ساذج !

كل الآباء سذج..

وكل الحيل التي ابتكرتها أفلحت.. وأصبحت أخرج للقـاء أحمد .. كنت ألقـاه مرة كل شهـر.. ثم أصبحـت ألقـاه مـرة كل أسبـوع. ثم مـرتين فى الأسبوع.. وأبى مطمئن سعيد!!

ولم يكن بيني وبين أحمد شيء أخجـل منـه.. لـو كـان أبى عـاقـلا، ولو كانت أمي سليمة.. لقلت لهما كل مـا بيني وبين أحمد، بلا خوف، وبلا حرج..

كل ما كان بيني وبينه حب.. حب كبير.. حب أطهر من أنفاس الملائكة..

ولم يكن لقـاؤنـا سوى أحـلام.. نسير فى شـارع الجبـلاية، يـدى فى يـده، ونحلم.. نحلم بيننا..

وتعـودنا أن نفترق عنـدمـا نصل الى ميـدان سعد زغلـول.. نفترق على موعد جديد.. وأعبر كوبرى قصر النيل وحدى، وأسير حتى ميدان التحرير، ومن هناك أركب الأوتوبيس إلى بيتى..

إلى أن كان يوم..

وكانت يدى فى يد أحمد ، ونحن سائران بجـانب سور حديقة الأندلس.. وفجأة.. رأيت عمى أمامى.. يبحلق بعينين دهشتين فى وجهى..

وفى بـرهـة خـاطفـة ارتفعت فى مخيلتى صورة أبـى القـاسـى، وأمى المريضة.. وارتعشت.. ارتعشت من تحت ثيابى..

وصرخ عمى وهو يقف فى مواجهتى كأنه يمنعنى من الهرب:

— إيه ده يا بت.. مين اللى معاكى ده ؟!

إن عمى ألعن من أبى..

ودون أن أفكر، أجبت بسرعة :

— حضرتك مين؟

وصرخ:

— يا اقولك مين اللى معاكى ده ؟ !
وصرخت صرخة أعلى من صرخته :
— أنت مين أنت.. أنا ما عرفكش.. أنت مالك ومالى..
واتسعت عينا عمي كأنه جُنّ .. وصرخ :
— أنا مين يا مجرمة.. مش عارفة أنا مين..
وعدت أصرخ :
— أيوه ما أعرفكش.. إيه البلاوى دى، إبعد عنى احسن لك ..
وصرخ عمى:
— يا بت فتحي عينك فى .. أنا عمك .. عمك يا بجحة يا قليلة الأدب..
والتفت إلى أحمد وأنا أهز كتفى ببرود، وقلت :
— ياللا بينا يا أحمد.. ده باين عليه راجل مجنون..
وأحمد واقف كالأبله ، لا يستطيع أن يتبين حقيقة الموقف..
وعاد عمى يصرخ..
وأنا أصرخ..
والتف الناس .. ناس كثيرون.. وعسكرى البوليس..
وصرخ عمى أمامهم :
— دى بنت أخويا .. أنا عمها
وصرخت أمامهم :
— أنا ما عرفوش.. ما شفتوش قبل كده.. ده مجنون .. ابعدوه عنى..
ودفعه أحمد فى صدره..
وشده الناس من أمامى..
وصاح فيه واحد منهم:
— خلاص يا أخينا.. اعقل بلاش فضايح ..
وقال آخر :
— يا راجل يا شايب .. اتلم ..
وقال العسكرى :
— أنت حاتفضها، ولا تمشى قدامى على القسم !
لقد صدقنى الناس..
ونظر إلىّ عمى والنار تندلع من عينيه.. ثم تركنى وخرج من بين زحام

الناس مهرولا.. وكنت أعلم انه سيذهب إلى بيتنا ليبلغ أبى بالحادث.. فأسرعت أنا وأحمد.. وركبت سيارة أجرة.. كنت أعلم أن عمى سيركب الأوتوبيس..

ووصلت إلى البيت قبله..

وغيرت ثيابى بسرعة، ثم جلست انتظر فى غرفتى فترة ، وأنا أضغط على قلبى بيدى.. واستجمع اعصابى وإرادتى، لأبدو هادئة..

كان يجب ان استمر فى تمثيل الرواية..

ودق جرس الباب.. وشددت نفسا عميقا من صدرى.. وقمت لأفتح الباب بنفسى، وأنا أرتدى ثوب البيت.

وفتحت الباب..

إنه عمى..

وقلت وأنا أرسم ابتسامة فوق شفتى:

— أهلا، ازيك يا عمى؟

وصرخ :

— عمك يا مجرمة..

ثم رفع يده وصفعنى .. صفعنى بقسوة.. وارتج جسدى كله لصفعته .. وصرخت:

— إيه ده .. أنا عملت إيه يا عمى.. يا بابا .. يا بابا.. الحقنى يا بابا..

وبدأت أبكى..

وجاء أبى مهرولا، وهو يصيح :

— إيه.. فيه إيه .. حصل إيه..

وقال عمى وهو يرتعش :

— أنا لسه شايفها من ربع ساعة ماشية مع راجل جنب جنينة الأندلس !

وصرخت :

— أنا .. أنا يا عمى.. حرام عليك يا عمى.. حرام عليك تظلمنى !

وصرخ عمى :

— أيوه أنتى .. وكنتى لابسة فستان أزرق !

وقلت وأنا انشج بالبكاء :

— هو ما فيش حد عنده فستان أزرق إلا أنا.. حرام عليك يا عمى.. حرام..

وصرخ عمى :

— حرمت عليكى عيشتك.. ده أنا شايفك بعنيه دول.. يا بجحة.. يا وقحة..

وأبى واقف مشدوه.. إن الاتهام أكبر من أن يصدقه.. إنه لا يستطيع أن يصدق بسهولة أن ابنته تسير مع رجل فى شارع.. بعد كل هذه القيود.. وبعد كل هذه القسوة.. لا يمكن.. مستحيل !!

وقال أبى وهو حائر :

— أنت متأكد أنك شفتها يا خليل يا اخويا ؟!

وقال عمى ووجهه مزدرد :

— طبعا متأكد.. زى ما أنا شايفها دلوقت..

وصرخت :

— ما تصدقوش يا بابا .. دى خديجة صاحبتى موصلانى لغاية باب البيت هى وخدامتها..

وظهرت على وجه أبى أمارات الخطورة، كأنه أصبح شرلوك هولمز.. وأخرج آلة التليفون من دولابه، واتصل بصديقتى خديجة فأكدت له ما كنا قد اتفقنا عليه قبل أن اخرج للقاء أحمد..

وعاد أبى وقد بدت الراحة على وجهه.. انه يفضل ألف مرة أن يكون عمى كاذبا.. وقال وظل من ابتسامة الراحة يتراقص فوق شفتيه :

— ما يمكن تكون غلطان يا خليل يا خويا..

وقال عمى وصراخه يكاد يصل الى الجيران :

— أنا مش غلطان .. أنا شايفها بعنيه دول..

وقال أبى :

— لكن دى صاحبتها بتقول أنها وصلتها لغاية باب البيت..

وسكت عمى قليلا وهو يخور كالثور، وعيناه تنهشان وجهى.. ثم انطلق فجأة صارخا :

— طيب خليها تحلف على المصحف.. أنا راضى انها تحلف على المصحف..

وارتجفت ..

لا .. لا استطيع أن أقسم بالقرآن.. لا استطيع ان أغضب الله.. قد أغضب أبى.. قد أغضب أمى.. ولكن، الله.. لا.. لا استطيع

إنه قسم عظيم..

قسم يقتلنى..

ولكن أمى مريضة، وقد تموت.. وأبى مغرور وقد يحطمه الصدق .. و..

ونظر إلىّ أبى فى ثقة، وقال كأنه ينهى المشكلة:

— احلفى على المصحف يا نادية..

ولا زلت ارتجف ..

وأمى راقدة.. مشلولة.. ووجهها فى لون ملاءة السرير.. وشفتاها ترتعشان كأنها تلفظ أنفاسها..

وأبى واقف ينظر إلىّ فى اطمئنان .. كأنه وضع حياته بين يدى.. واطمأن..

وأنا لا أنطق..

وجذب أبى المصحف الموضوع بجانب فراش أمى، ووضعه بين يدى، وهو يقول مبتسما :

— احلفى يا نادية..

وتمتمت فى صدرى: «سامحنى يارب ». ورفعت المصحف إلى شفتى وقبلته، ثم رفعته فوق عينى.. ونطقت بالقسم الكبير :

— والمصحف الشريف أنى لا شفت عمى، ولا عمى شافنى النهارده.. ولا هويت ناحية جنينة الأندلس..

وكاد المصحف يسقط من يدى.. احسست بقلبى ينقبض.. وغمام أسود يملأ عينى.. أحسست كأن السماء تتجمع لتسقط فوق رأسى صاعقة..

وسمعت أبى يتكلم، وكان صوته يأتى إلىّ من بعيد، قائلا:

— أهى حلفت يا سيدى.. استرحت !

وظل عمى ينظر إلىّ والنار فى عينيه، ثم خطف المصحف من يدى، قائلا :

— طيب هاتى..

ووضع المصحف فوق عينيه، واقسم القسم الكبير:

— والمصحف الشريف أنى شفت نادية بنت أخويا النهارده، ماشية مع راجل جنب جنينة الأندلس..

ثم ألقى المصحف على المائدة فى عصبية.. وخرج من البيت وهو يصيح :
—خد بالك من بنتك يا حسنين يا اخويا.. ما تخليهاش تفضحنا وتسود وشنا

وسقط أبي جالسا فوق الأريكة، وسقط رأسه فوق صدره، وتعقد وجهه .. ثم رفع عينيه إلىّ برهة.. وعاد وأسقط رأسه فوق صدره ..

وأمي يزداد وجهها امتقاعا.. وتنظر إلىّ .. ثم تنظر إلى أبي.. ثم تنحدر دموع كبيرة تعبة فوق خديها..

وجريت إلى غرفتي الملاصقة لغرفة والدى.. وألقيت نفسي فوق الفراش وبكيت.. بكيت كثيرا .. كأني اتوسل بدموعي الى الله.. يارب ارحمني.. يارب لا تنتقم مني.. يا رب إنى لم ارتكب إثماً.. إنى أحب حبيبى.. وأحب أمى .. وأحب أبى.. وأنت رب الحب.. وقد اقسمت بكتابك الكريم كذبا لأحمى حبى.. يا رب أنت أعلم بما فى قلبى.. لا تنتقم منى.. لا تعاقبنى.. إنى خائفة يا رب.. خائفة منك.. خائفة على حبى.. على أمى وأبى وحبيبى.. سامحنى.. ارحمنى.. ارحمنى يا رب..

و..

وسمعت جرس التليفون يدق فى غرفة أبى.. وسمعته يصرخ فى هلع:

—ايه.. نقلتوه المستشفى.. طيب أنا جاى حالا..

ثم سمعته يخاطب أمي قائلا:

—أخويا انشل.. ونقلوه المستشفى..

ثم سكت قليلا، وعاد يقول:

—يعنى كان لازم يحلف على المصحف.. ده المصحف كبير.. استغفر الله العظيم يا رب..

—ثم دخل إلى غرفتي مهرولا، وقال لى وهو يلهث:

—قومي يابنتي البسي وتعالى معايا المستشفى نشوف عمك جراله إيه.. ولازم تسامحيه.. سامحيه من كل قلبك.. يمكن ربنا ياخد بإيده..

وقلت له والدهشة تستبد بى، وقلبى متجه إلى الله:

— مسامحاه يا بابا ..



أين تذهب أمي ؟



ان أمي جميلــــــة.. صغيرة.. أجمل مني.. والفرق بين عمري وعمرهـا لا يزيد عن سبعة عشر عـامـاً.. انها في الثـالثـة والثـلاثين من عمرها.. ورغم ذلك فلم أر أما أشد منها حرصاً على التقـاليـد، ومظاهـر الشرف.. ولم أر أمـا أقسى منها على ابنتها.. انها تريد مني ان ابقى دائما بجـانبها.. وتعتبر خروجي وحـدي إلى الشارع جريمة.. وتعتبر حديثي في التليفـون عاراً، حتى لو تأكدت من انـــي احادث إحدى صديقاتي.. وإذا تركت ثوبي يكشف عن أكثر من رقبتي، فهذه فضيحة، لا يمكنها السكوت عليها..

وقد مات أبـي منذ سنتين.. مات في عز شبابـه.. الله يرحمه.. ولم تخفف أمي من تزمتها، بعـد وفاته.. بالعكس.. وازدادت تـزمتا، ازدادت قسوة عليّ وعلى نفسها.. انها إلى الآن لا تـزال ترتدي السواد.. ولا تـزال تزور قبر أبي صبـاح كل يـوم جمعة.. ولا تخرج مـن البيت إلا إلى القرافـة أو في زيـارات متباعـدة لبيت جدي.. ولا يزورهـا من صديقاتها إلا عـدد قليل، اثنتان أو ثلاثـة.. ويزرنها مرة أو مرتين في العـام كله.. وترفض كل عـرض للزواج.. انها تعتبر من يحدثهـا عن الزواج كأنـه يهينها.. وأنا اعلم انها كـانت تحب أبي.. كـان حبهـا الأول والأخير.. حبها الـوحيـد.. ولكن مهما بلغ بها هـذا الحب، فحرام ان تدفن نفسهـا حية.. وإذا كانت قد قـررت ان تدفن نفسـها حية، فحرام أن تدفنني معها..

ورغم ذلك، فنحن لا نعيش في وسط متـزمت.. اننا نسكن المعـادي، وأنا طـالبة في مـدرســة الليسيه.. وكل بنـات الضـاحية وكل سيـداتها، ثم كل زميلاتي في المدرسة، يعشن حياة متحررة منطلقة، ويقبلن على الحياة ، بكل ما في الحيـاة من حب ، وضـحك ، ومتعـة.. متع بريئة كثيرة، تحرمنـي منها أمي..

وكان الطريق الوحيد أمامي، حتى اعيش الحياة، هو ان أخدع أمي..

وقد خدعتها ..

وتماديت فى خداعها..

إنها مطمئنـة إلى انى اذهب إلى المدرسة كل صبـاح فى سيارة المدرسـة.. وأعـود فى سيـارة المدرسـة.. ولكنهـا لا تعلـم انى ازوغ بين الحصص مع بعض زميـلاتى، ونذهب إلى السينما فى الحفـلات الصباحية، أو نـذهب إلى محل البامبو فى شارع سليمان باشـا لنأكل الساندوتش والجاتو.. وكل منا معها حبيبهـا.. أو، الولاد بتـاعها.. ثم نعـود إلى المدرسة دون ان يشعـر بنا أحد، ونركب السيارة المدرسية لتعود بنا إلى بيوتنا..

انها لا تـدرى ــ رغم حرصهـا وتشـددهـا فى مراقبتى ــ إلى أى مـدى استطيع ان اذهب فى خـداعها.. انها لا تـدرى مثلاً، انى احـادث حبيبى كل يوم فى التليفـون.. احادثه وهى جالسـة أمامى.. كل ما هنالك انى احـادثه باللغـة الفرنسية.. وهى لا تعلـم الفرنسيـة.. فقـد تلقت تعليمها فى المدارس العربية، ولم تستمر فى تعليمها إلى أكثـر من الابتدائية.. وكانت تتململ وهـى تـرانى اتحدث فى التليفون، وأرى نظـراتها تنطق بـالشك.. والغيظ.. ولكن لا يهم.. ما دامت لا تفهم شيئا مما اقوله.. وآه لو فهمت..

وكنت أحيـانـا أحس كأنى اعـذبها بحديثى فى التليفـون.. وكنت اتلـذذ بتعذيبى لها، كأنى انتقم منها لقسوتها علىّ.. وكانت تصرخ فىّ كأنها لم تعد تحتمل مزيداً من العذاب:

ــ كفاية كلام بأه ..

فأرد فى دلال كأنى اغيظها :

ــ حاضر يا ماما ..

وأحيانا كانت تصيح فى وجهى:

ــ تسمحى تقوليلى ما بتكلميش صاحبتك بالعربى ليه؟

فأرد، وأنا ادعى العبط:

ــ يا مـاما كل صاحباتى بيتكلمـوا بالفرنساوى.. عـاوزاهم يضحكوا علىّ..

وفى مرة هجمت علىّ لتنتزع سماعـة التليفـون من يـدى، وتستمع إلى

الصـوت الذى اتحدث إليـه .. ولم اهتـز فقد كنت متفقـة مع حبيبى على أن يحتفظ باخته بجـانبه كلما حدثته فى التليفـون.. وكنت اسمى اخته: بوليس النجدة.. وعنـدما همَّت أمى أن تنتـزع من يـدى سماعة التليفون، قلـت له بسرعة.. وبالفرنسية طبعاً:

— إدى السماعة لأختك..

وسمعت أمى صوت أختـه.. وازداد غيظها وتـركت لى الغرفة سـاخطة، وهى تهمهم:

— مرقعة بنات!

وأكثر من مرة هـددتنى أمى بأن ترفع التليفون من البيت.. ولكنى كنت واثقـة انها لن تنفذ تهديـدها، فـاننا ــ أمى وأنا وأخى الصغير ــ نعيش فى البيت وحدنـا.. والتليفون بالنسبة لنا، بمثـابة جرس الخطر.. نـدقه فى بيت جدى، أو فى بيت خالى، كلما ألم بنا شىء..

إلى أن كان يوم..

وكنت فى المدرسـة، واحتجت إلى ان أحـادث أمى فى التليفون لأبلغهـا ان عندنـا حصة اضافيـة، وانى سـاتأخـر عن موعد عـودتى.. وكانت السـاعة الحاديـة عشرة صبـاحـاً.. ورد علىّ الخادم وابلغنى ان أمى قـد خـرجت.. ودهشت.. فإن أمى لم تتعـود أن تخرج.. ويـوم تخرج فانها تحدد مـوعـد خروجها قبله بأيام، وتعلنه لى..

وقضيت اليـوم الدراسى، وعـدت إلى البيت، وانتظرت ان تبـادثنى أمى بخبر خروجها.. ولكنها لم تفعل.. واضطررت ان اسألها:

— انتى خرجت النهاردة يا ماما؟

وخيل إلىّ انها ارتبكت لسؤالى، وقالت فى تلعثم:

— عرفتى منين؟

قلت فى براءة:

— اصلى ضربت لك تليفون من المدرسة.. مالقتكيش..

وقـالت والـدمـاء تتصـاعد إلى وجههـا ، ولا تستطيـع أن تـواجهنى بنظراتها:

— آه .. ده أنا كنت لسه حاقولك.. أصل مرات خالك ضربت لى تليفون.. وكانت عيانة شوية.. رحت ازورها..

ولم اصدق أمى.. لا أدرى لماذا.. ولكنى لم اصدقها.. قلبى حدثنى بأنها تكذب علىّ..

وبعد يومين احتجت مرة ثانية ان اتحدث إلى أمى فى التليفون من المدرسة.. انها ليست فى البيت.. خرجت.. وعدت فى المساء.. فلم تبلغنى خبر خروجها.. وسكت أنا.. لم اقل لها انى حادثتها فى التليفون..

ولم أنم ليلتها.. قضيت الليل اتقلب على جنبى.. واتساءل أين تذهب أمى؟ وإذا كانت تذهب لزيارة أقاربها، فلماذا لا تصارحنى..

أين تذهب.. هل لها عشيق تذهب إليه.. هذه الأم المتزمتة القاسية، هل لها عشيق.

واحسست بشىء يتمزق فى صدرى.. واحسست كأنى سأصرخ من الألم!

وتعمدت فى اليوم التالى ان اتصل بها فى التليفون.. فى نفس الموعد.. ثم أصبحت اتصل بها تليفونياً كل يوم.. واحيانا أجدها.. واحيانا تكون قد خرجت.. وحسبت الأيام التى تخرج فيها.. انها أيام محددة.. السبت، والاثنين، والأربعاء.. ودائماً فى نفس الموعد.. الساعة الحادية عشرة..

وهى لا تقول لى أبدا أنها خرجت!

ولا أدرى أين تذهب ..

ولا أسألها عن ذلك..

انها فى المساء تدخل حجرتها، وتغلق على نفسها الباب، بالمفتاح.. وتبقى فيها وحدها ساعات.. دون أن أدرى ما تفعله لعلها تبكى.. لعلها تحلم.. لعلها تكتب خطاباً غرامياً..

ثم شىء آخر ..

انها لم تعد تجلس أمامى كلما تحدثت بالتليفون مع حبيبى.. ولم تعد تغتاظ وهى تسمعنى اتحدث باللغة الفرنسية.. وأصبحت انا التى اراقبها، وأجلس أمامها كلما تحدثت فى التليفون.. واغتاظ.. انها تدعى انها تحادث

أمها، أو مرات خالى.. ولكن من يدرى.. لعلها تخدعنى كما اخدعها..

ورغم ذلك فهى لاتزال ترتدى السـواد، ولاتزال تذهب إلى قبر أبى صباح كل جمعة.. يابجاحتها.. كم تجيد الادعاء.. وكم تحرص على المظاهر..

من يكون عشيقها ؟

لا بد أنه رجل متزوج.. أو ربما سـائق سيارة.. والا لتقدم للزواج منها.. ولابـد انه سـافل، منحط، يخدعهـا.. وأمى امرأة سـاذجـة، قطعت عمرهـا منطوية، وليس لها تجارب لتعينها على السير فى هذا الطريق .. القذر..

وتعذبت.

لابد أن لها عشيقا

تعذبت كثيرا.. ليس هنـاك اقسى من عذاب الابنة عندمـا تعرف أن لأمها عشيقا.. انه عذاب الغيرة.. والكـرامة المجروحة.. والمثل الأعلى المحطم.. انى أذهب إلى المدرسـة فيخيل إلىّ أن كل زميـلاتـى يشرن إلىّ ويخرجن لى ألسنتهن ويتهامسن: هذه البنت لأمها عشيق..

وضـعفت.. وتلفت أعصـابى.. ثم لم أعد أحتمل مزيدا من العذاب..

قررت أن أكتشف الحقيقة بنفسى ..

وفى يـوم الاثنين خرجت من البيـت، واختبأت فى الحديقة، إلى أن جـاءت سيـارة المدرسة.. وضـغط السـائق على النفير مرتين، ولما لم يجدنى، اعتقـد أنى مريضة وأنى لن أذهب إلى المدرسة ، فانصرف ..

وخرجت من الحديقة واختبأت فى شـارع جانبى، ووقفت أرقب بيتنا من بعيد.. ومضت الدقائق ثقيلة مملـة.. وأنا لا اتعب ، ولا أرجع عن رأيى.. إلى أن كانت السـاعة العـاشرة والربع، ورأيت أمى تخرج من البيت.. وفى يـدها كيس من الـورق تعـودت أن تحمل فيـه خيوط التريكـو. فتبعتهـا دون أن ترانى.. وأنا اختبىء خلف فـروع الشجر، وفى ظلال البيوت.. إلى أن وصلت إلى محطة المعـادى، وركبت القطار.. وركبت نفس القطار، فى عربـة أخرى وعيناى مركزتان على العربة التى ركبت فيها أمى ..

ونـزلت أمى فى محطة بـاب اللـوق.. وسارت .. وسرت وراءهـا، دون أن تلمحنى.. ثم رأيتها تدخل فى عمارة بشـارع محمد فريد.. وأحسست بقلبى

ينخلع، ووقفت برهة كالمصعوقة.. انها هنا تلتقى بعشيقهـا.. فى شقة من هذه العمارة.. هذه الأم الآثمة..

وتمالكت نفسى بسرعة.. ودخلت العمارة وراءهـا.. وصعـدت السلم.. صعدت وراءها، وعيناى مركزتان على قدميها، اللتين تصعدان أمامى.

ودخلت أمى فى إحدى الشقق..

شقة بابها مفتوح..

وعلى الباب لوحـة كبيرة مكتوب عليها: «مدرسـة فاكس.. لتعليم جميع اللغات»..

ولم افهم شيئا..

ودخلت وراءها، وأنا أحس بنفسى كالعبيطة.. و..

ورأيتها..

جالسة على أحد مقاعد الدراسة..

ورأتنى أمى.. وانطلقت الـدهشة فى وجههـا.. وظلت تنظـر إلىّ ساكتـة.. وقلت لها وصوتى لا يكاد يخرج من زورى:

— بتعملى إيه هنا يا ماما؟

وقالت هامسة، كأنها تتنهد:

— باتعلم فرنساوى علشان أفهم بتقولى ايه فى التليفون..

وارتميت على صدرها، وبكيت..

بكيت كثيرا..

بكيت كل عذابى..

وأخذتنى أمى بعيدا عن بقية زميلاتها فى الدراسة وعادت بى إلى البيت..

ورويت لها قصتى كاملة، ووعدتها الا اتحدث مرة ثانية فى التليفون باللغة الفرنسية..

ولكن..

أتدرى؟!

إن أمى مصممة على أن تتم تعلم اللغة الفرنسية!!

رقم الإيداع
١٩٩٦ / ٨٢١٠

الترقيم الدولى
977 - 08 - 0788 - 3